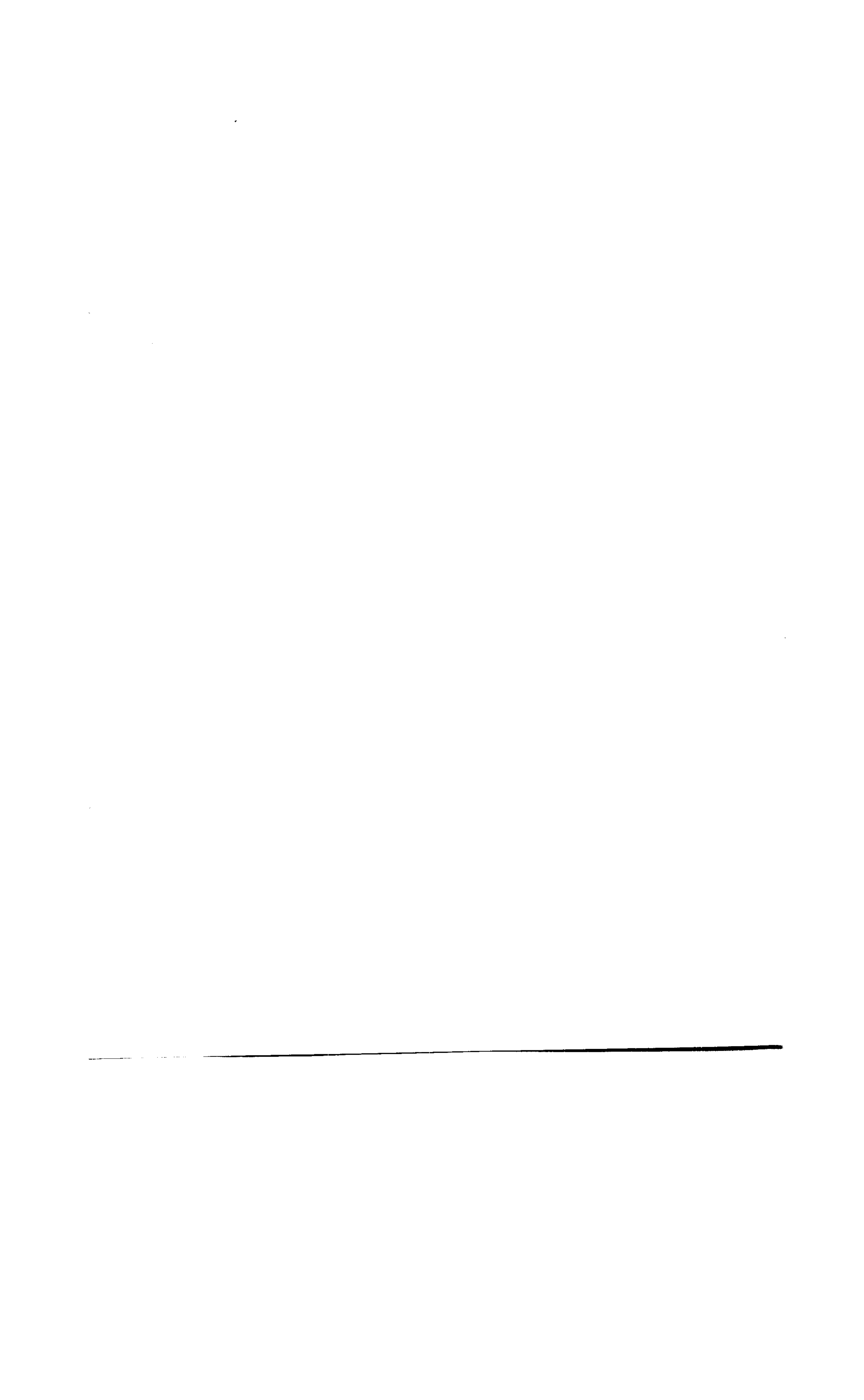
جـــامعـــة المنوفية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

تفسير سورة الأحزاب

د/ محمد عبد العزيز إبراهيم
مدرس الدراسات الإسلامية

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م



تفسير سورة الأحزاب

مقدمة :

سورة الأحزاب سورة مدنية في قول جميع العلماء ، نزلت في المنافقين وإيذائهم رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها . وهى ثلاث وسبعون آية ، وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة ، وقد كانت فيها آية الرجم للشيخ والشيخة إذا زنيا والعياذ بالله .

يقول القرطبي : وقد كانت فيها آية الرجم " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم " (١) .

وهذا يعنى أن الله تعالى قد رفع من سورة الأحزاب نسخاً ما يزيد على ما في أيدينا ، وأن آية الرجم رفع لفظها .

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله – صلي الله عليه وسلم – مائتي آية ، فلما كُتِبَ المصحف لم يقدر منها إلا على ما هى عليه الآية . قال أبو بكر : ومعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا قلت : هذا وجه من وجوه النسخ .

قال أبى بن كعب – رضى الله عنه – كم تعدون سورة الأحزاب ، قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، قال : فو الذي يحلف به أبي بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم " .

فأراد أبي بن كعب – رضي الله عنه – أن يبين أن آية الرجم من جملة ما نُسِخَ من القرآن ، أما ما يحكى من أن تلك الزيادات كانت في صحيفة في بيت عائشة – رضي الله عنها – فأكلتها الداجن (الشاة التي يعلفها الناس في بيوتهم) فمن تأليف الملاحدة والروافض (٢) .

---

(١) تفسير القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ) – دار الشعب القاهرة ١٣٧٢ ط٢ ١١٣/١٤ .

(٢) القرطبي ١١٣/١٤ .

حرمة التبني في الإسلام

قوله تعالى:"يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً – واتبع ما يوحي إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ."

الإعراب :

يا أيها النبي . يا أداة نداء.

وأيُّها : أي منادى مبنى على الضم في محل نصب والها للتنبيه .

النبيُّ : نعت مرفوع وعلامة رفعه الضمة ، لأنه مفرد

اتق : فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت .

ولا تطع : لا الناهية ، تطع فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، وعلامة جزمه السكون ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت .

الكافرين : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء ؛ لأنه جمع مذكر سالم .

عليما : خبر كان منصوب وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

خبيرا : خبر كان منصوب وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد ، وجملة كان بما تعملون خبيرا جملة فعلية في محل رفع خبر إن .

التفسير :

يا أيها النبي اتق الله بطاعته وأداء فرائضه وواجب حقوقه عليك ، والانتهاء عن محارمه وانتهاك حدوده ، ولا تطع هؤلاء الذين يقولون لك : اطرد من عندك من أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك حتى نجالسك ، وكذا لا تطع هؤلاء المنافقين الذين يظهرون لك الإيمان بالله ، والنصيحة لك وهم لا يألونك وأصحابك ودينك خبالاً ، فلا تقبل منهم رأياً ولا تستشرهم ، فإنهم أعداء لله ورسوله والمؤمنين .

إن الله سبحانه عليم بما تضمره نفوسهم وما الذي يقصدونه في إظهارهم لك النصيحة مع الذي ينطوون لك عليه ، حكيم في تدبير أمر دينك وتدبير أمر جميع الخلق [1] .

---

(١) تفسير الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري (٣١٠هـ) – دار الفكر بيروت ١٤٠٥هـ ٢١/١١٧ .

وقد روى أن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – لما هاجر إلـــى المدينـــة ، وكان يحب السلام مع يهود بنى قريظة والنضير وقينقاع ، وقد تابعه ناس منهم على النفاق ، فكان يلين لهم جانبه ، ويكرم صغيرهم وكبيرهم ، وإذا أتـــى مـــنهم قبـــيح تجاوز عنه ، وكان – صلي الله عليه وسلم – يسمع منهم ، فنزلت الآية .

وذكر الواحدى والقشيري والثعلبي والماوردي وغيرهم أنها نزلت فـــي أبـــي سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبى جهل وأبى الأعور عمرو بن سفيان نزلوا المدينة على عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بعد أُحد ، فقام معهم عبد الله بن ســـعد بن أبي سرح ، وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي – صلي الله عليه وسلم – وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة ، وقل إن لها شفاعة ومنعـــة لمن عبدها وندعك وربك فشقّ على النبي – صلي الله عليه وسلم – ما قالوه ، فقال عمر – رضي الله عنه – ائذن لي يا رسول الله في قتلهم ، فمنعه النبي – صلي الله عليه وسلم – عن ذلك ، فقال عمر – رضي الله عنه – اخرجوا في لعنة الله وغضبه فأمر النبي – صلي الله عليه وسلم – أن يخرجوا من المدينة فنزلت الآية : " يا أيها النبي اتق الله " أي خف الله ولا تطع هؤلاء الكافرين من أهل مكة يعنى أبا ســـفيان وأبا الأعور وعكرمة والمنافقين من أهل المدينة وهم عبد الله بن أبي وطعمة وعبـــد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نهيت عنه ، ولا تمل إليهم ، إن الله كان عليماً بكفرهم حكيماً فيما يفعل بهم .

وروى أن أهل مكة دعوا رسول الله – صلي الله عليه وسلم – إلى أن يرجع عن دينه ، ويعطوه شطر أموالهم ، ويزوجه شيبة بن ربيعة بنته ، وخوفـــه منـــافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع فنزلت الآية .

وقد دلّت الآية في قوله تعالى : " إن الله كان عليماً حكيماً " على أنه – صلي الله عليه وسلم – كان يميل إليهم استدعاء لهم إلى الإسلام ، أي لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه ، لأنه حكيم ، وقيل الخطاب موجه للنبـــي – صلي الله عليه وسلم – ولأمته .

قوله تعالى : " واتبع ما يوحي إليك من ربك " يعني القرآن ، وفيه زجر عن اتباع مراسم الجاهلية ، وأمر بجهادهم ومنابذتهم ، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص ، والخطاب له – صلي الله عليه وسلم – ولأمته والسنة كذلك مما يجب اتباعه مع القرآن ، لأنه – صلي الله عليه وسلم – لا ينطق إلا عن حق ، فيقول تعالى :"وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" [١] .

فمن أنكر السنة فهو كافر بإجماع العلماء ، لأن السنة من الوحى المتبع وهى المذكرة الإيضاحية المفسرة والشارحة لما أجمله القرآن الكريم . وقوله تعالى : " إن الله كان بما تعملون خبيراً " أي لا يخفي عليه خافية [٢] .

فالله سبحانه وتعالى ذو خبرة بما يفعله الإنسان ومجازيه عليه بما وعد من الجزاء .

القراءات :

قوله تعالى : " إن الله كان بما تعملون خبيراً " .

قرئت تعملون هكذا بالتاء وهى قراءة العامة على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق " يعملون " بالياء على الخبر وكذا في قوله تعالى " بما تعملون بصيراً " [٣] .

قوله تعالى :

" وتوكل على الله وكفي بالله وكيلاً " .

أي اعتمد عليه في كل أحوالك ، فهو الذي يمنعك ، ولا يضرك من خذلك ، وكفي به سبحانه وكيلاً حافظاً لك ولأمتك [٤] .

---

(١) الحشر ٧ .

(٢) تفسير ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) – دار الفكر – بيروت ١٤٠١هـ ٤٦٦/٣ .

(٣) القرطبي ١١٥/١٤ .

(٤) تفسير الجلالين :.محمد بن أحمد وعبد الرحمن بن أبي بكر المحلي والسيوطي – دار الحديث بالقاهرة – ط١ د/ت ٥٤٩/١ .

وقال شيخ من أهل الشام : قدم على النبي – صلي الله عليه وسلم – وفد من ثقيف ، فطلبوا منه أن يمتعهم باللات سنة ، وهى الطاغية التي كانت ثقيف تعبدها ، وقالوا : لتعلم قريش منزلتنا عندك ، فأصيب النبي – صلي الله عليه وسلم – بسالهم بسبب ذلك ، فنزلت الآية : " وتوكل على الله وكفي بالله وكيلاً " أي كافيك ومانعك منهم ومما تخافه ، وكلمة " بالله " في موضع رفع ، لأنه فاعل ، وكلمة " وكيلاً منصوبة على البيان أو الحال .

قوله تعالى : " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياء كم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ."

سبب النزول :

قال الطبري – رحمه الله :

اختلف أهل التأويل في المراد من قوله تعالى :" ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه " فقال بعضهم : عنى بذلك تكذيب قوم من أهل النفاق وصفوا النبي – صلي الله عليه وسلم – بأنه ذو قلبين ، فنفي الله ذلك عن نبيه وكذبهم ، فقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى :" ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه " ما عنى بذلك فقال : قام رسول الله – صلي الله عليه وسلم – يوماً فصلي ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : إن له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم ، فأنزل الله تعالى " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه " .

وقال آخرون : بل عنى بذلك رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه(١) .

وعن مجاهد – رحمه الله – قال في قوله تعالى : " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه " إن رجلاً من بني فهد قال : إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد

(١) تفسير الطبري ١١٩/٢١ .

منهما أفضل من عقل محمد ، فلما هزم المشركون يوم بدر ، ومعهم جميل بن معمر الفهري ، رآه أبو سفيان في العير وهو معلق من إحدى نعليه في يده والأخرى في رجله ، فقال أبو سفيان : ما حال الناس قال : انهزموا ، قال : فما بال إحدى نعليك في يدك ، والأخرى في رجلك ، قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله في يده [1]. وقيل : نزلت في عبد الله بن خطل .

التفسير :

قال الزهري وابن حبان : نزل ذلك تمثيلاً في زيد بن حارثة لما تبناه النبي – صلي الله عليه وسلم – والمعنى كما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين .

وقيل : هو مثل ضرب للمظاهر أي كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى تكون له أمَّان .

وقيل : كان الواحد من المنافقين يقول : لي قلب يأمرني بكذا ، وقلب يأمرني بكذا ، فالمنافق ذو قلبين ، فالمقصود رد للنفاق .

وقيل : لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب كما لا يجتمع قلبان في جوف ، ويظهر من هذه الآية بجملتها نفي أشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت وإعلام بحقيقة الأمر .

والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة ، خلقها الله تعالى في الآدمي ، وجعلها محلاً للعلم ، فيحصى به العبد من العلوم مالا يسع في أسفار ، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهي ، ويضبطه فيه بالحفظ الرباني حتى يحصيه ولا ينسي منه شيئاً ، وهو بين لمتين : لمة من الملك سبحانه ، ولمة من الشيطان ، وهو محل الخطرات والوساوس ، ومكان الكفر والإيمان ، وموضع الإصرار والإنابة ،

---

(١) تفسير القرطبي ١١٦/١٤ .

ومجرى الانزعاج والطمأنينة ، والمعنى في الآية أنه لا يجتمع في القلب الإيمان والكفر ، والهدى والضلالة ، والإنابة والإصرار .

وتدل الآية على أنه لا أحد بقلبين ، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم ، أي إنما هو قلب واحد ، فإما فيه إيمان وإما فيه كفر ، لأن درجة النفاق كأنها متوسطة ، فنفاها الله تعالى ، وبين أنه قلب واحد ، وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نسى شيئاً أو وهم ، فيقول على وجهة الاعتذار : ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه (١) .

قوله تعالى : " وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم "

يعنى قول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمي وذلك مذكور في سورة المجادلة ، حيث نزلت في خولة بنت ثعلبة التي اشتكت زوجها لرسول الله – صلي الله عليه وسلم – حين ظاهر منها قائلة : أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني ، وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية :" قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله " (٢) .

ويدعى زوجها أوس بن الصامت ، وهو أخو عبادة بن الصامت وقيل : هي خولة بنت خويلد ، وكانت حسنة الجسم ، فرآها زوجها ساجدة ، فنظر إلى عجيزتها ، فأعجبه أمرها ، فلما انصرفت أرادها فأبت ، فغضب عليها ، فقال لها : أنت علىّ كظهر أمي ، وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية ، فسألت النبي – صلي الله عليه وسلم – فقال لها : حرمت عليه ، فقالت : والله ما ذكر طلاقاً ، ثم قالت : أشكوا إلى الله فاقتي ووحدتى ووحشتي وفراق زوجي وابن عمى ، وقد نفضت له بطني ، فقال – صلي الله عليه وسلم – : حرمت عليه ، فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت آية الظهار ، وروى الحسن أنها قالت : يا رسول الله قد نسخ الله سنن

(١) القرطبي ١١٧/١٤ وما بعدها .
(٢) المجادلة ١ .

الجاهلية ، وإن زوجي ظاهر منى ، فقال – صلي الله عليه وسلم – : ما أوحى إلـيّ في هذا شئ ، فقالت : يا رسول الله أوحى إليك في كل شئ وطوى عنك هذا ، فقال – صلي الله عليه وسلم – : هو ما قلت لك ، فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله – صلي الله عليه وسلم – فأنزل الله الآية من أول سورة المجادلة .

ولما نزلت الآية بكفارة الظهار أمر رسول الله – صلي الله عليـه وسـلم – زوجها أن يعتق رقبة فقال : لا أستطيع ، فقال له – صلي الله عليه وسلم – : فصم شهرين متتابعين قال : أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكل بصري ، قال الرسول – صلي الله عليه وسلم – : فأطعم ستين مسكيناً ، قال أوس : ما أجد إلا أن تعينني عليه بعونٍ منك وصلة ، قال : فأعانه رسول الله – صـلي الله عليـه وسلم – على ذلك . وهذه هى كفارة الظهار والله تعالى أعلى وأعلم .

وقد أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت عليَّ كظهر أمي أنه مظاهر ، وذهب أكثرهم إلى أنه لو قال لها : أنت عليَّ كظهر ابنتي أو أختـي مـن ذوات المحارم أنه مظاهر أيضاً ، وهو مذهب مالك وأبى حنيفة وأحمد وغيرهما ، واختلف فيه عن الشافعي ، فروى عنه نحو قول مالك ، لأنه شبَّه امرأته بظهر محرم عليـه مؤبد كالأم – ، وروى عنه أبو ثور أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها وهو مذهب قتادة والشعبي [1] .

بينما ذهب ابن حزم إلا أنه لا كفارة على من قال لامرأته : أنت عليَّ كظهر أختي أو ابنتي أو شخص آخر ولو أجنبية واحتج بالآية " والـذين يظـاهرون مـن

---

(١) راجع أحكام القرآن للشافعي : أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٠هـ ١/٢٣٤ وما بعدها .

وراجع : شرح الزرقاني : محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (١١٢٢هـ) – دار الكتب العلمية ١٤١١هـ ط١ ٣/٢٣١ وما بعدها.

وراجع المغنى : أبو عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٤٠هـ) – دار الفكر – بيروت ط١ ١٤٠٥هـ ٨/٥ وما بعدها .

نسائهم ..... "[١] ، لأن الله تعالى لم يذكر إلا الظهر من الأم ، وهو ما ذهب إليه الإمام الشافعي رحمه الله في رواية على ما سبق ذكره [٢] .

قوله تعالى :" وما جعل أدعياء كم أبناءكم " أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة ، وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت :" ادعوهم لآبائهم هو أقسم عند الله ".

وكان زيد فيما روى عن أنس بن مالك وغيره مسبيًا من الشام ، سبته خيل من تهامة ، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ، فوهبه لعمته خديجة رضي الله عنها – فوهبته خديجة – رضي الله عنها – للنبي – صلي الله عليه وسلم – فأعتقه وتبناه فأقام عنده مدة ، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه ، فقال لهما النبي – صلي الله عليه وسلم – وذلك قبل البعث خيراه ، فإن اختار كما فهو لكما دون فداء ، فاختار الرق مع رسول الله – صلي الله عليه وسلم – على حريته مع قومه ، فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – : يا معشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه ، وكان يطوف على حلق قريش يشهدهم على ذلك ، فرضى عمه وأبوه ، وانصرفا [٣]

وقول ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثة ، وإنما كنا ندعوه زيد بن محمد دليل على أن التبني كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام ، يتوارث به ويتناصر إلى أن نسخ هذا الأمر بقوله تعالى :" ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله " أي أعدل ، فرفع حكم التبني ، ومنع من إطلاق لفظه ، أرشد إلى أن الأولى والأعدل أن ينسب الرجل إلى أبيه .

وكان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، بل كان يدعى إليه ، فيقال فلان بن فلان .

---

(١) المجادلة آية ٣ .

(٢) المحلى لابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (٤٥٦هـ) – دار الآفاق الجديدة – بيروت د/ت . ٥٠/١٠ وما بعدها

(٣) راجع القرطبي ١١٨/١٤ وما بعدها .

قوله تعالى :" ذلكم قولكم بأفواهكم " أي هذا القول من الرجل لزوجته : أنت عليَّ كظهر أمي ، وكذا من ادعى من ليس بابنه أنه ابنه إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، ولا يثبت بهذه الدعوى الباطلة نسب الذي ادعيت بنوته ، ولا تصير الزوجة – بقول الرجل لها : أنت عليَّ كظهر أمي – أمًّا له – : والله يقول الحق " أي لا الابن ابناً ولا الزوجة أماً ، " وهو يهدى السبيل " أي للسبيل المستقيم طريق الهدى والرشاد [١] .

وهذه الآية الكريمة :" ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله " من نسخ السنة بالقرآن ، فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف ، فإن لم يكن له أب معروف ، نسبوه إلى ولائه ، فإن لم يكن له ولاء معروف قال له : يا أخي يعنى في الدين ، قال تعالى :" إنما المؤمنون اخوة .... " [٢] .

وبناء على ذلك لو أن إنساناً نسب شخصاً إلى أبيه من التبني ، فإن كان على سبيل الخطأ أي ليس متعمداً ، بل سبق لسانه إلى هذا الخطأ ؛ فلا إثم عليه ولا مؤاخذة ، لقوله تعالى : " وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ." أي غفوراً للعمد ورحيماً برفع إثم الخطأ .

جاء في تفسير زاد المسير أن الآية الكريمة :" ادعوهم لآبائهم نزلت لما تزوج الرسول – صلي الله عليه وسلم – زينب بنت جحش ، وكانت زوجة لزيد بن حارثة قبل هذا وطلقها ، فقال اليهود والمنافقون : تزوج محمد – صلي الله عليه وسلم – بامرأة ابنه ، وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت :" ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله " [٣] .

وقوله تعالى :" ومواليكم " قال الزجاج أى بنو عمكم ، ويجوز أن يكون مواليكم أولياءكم في الدين .

---

(١) زاد المسير : عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ) المكتب الإسلامي – بيروت ١٤٠٤هـ ط٣ ٦/ ٣٥٠ .

(٢) الحجرات ١٠ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٥١ .

ولاية النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين

قوله تعالى :" النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً ."

الإعراب :

النبيُّ : مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة ، لأنه منفرد .

أولى : خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على آخره ، لأنه اسم مقصور

أن : أن أداة نصب للفعل المضارع .

تفعلوا : فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون ، لأنه من الأفعال الخمسة وواو الجماعة فاعل ضمير مبنى في محل رفع .

مسطوراً : خبر كان منصوب وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

التفسير :

قوله تعالى :" النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم .... " أي أحق منهم في أن يطاع ، فله – صلي الله عليه وسلم – أن يحكم فيهم بما شاء ، لقوله تعالى " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " [١] .

قال ابن عباس : إذا دعاهم إلى شئ ، ودعتهم أنفسهم إلى شئ كانت طاعته أولى من طاعة أنفسهم ، وهذا صحيح ، لأن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم ، والرسول – صلي الله عليه وسلم – يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم ، لأنه كالأب لهم يأمرهم بما فيه خيرهم وفلاحهم وفوزهم في الدنيا والآخرة [٢] .

---

(١) الحشر.٧ .

(٢) زاد المسير ٣٥٢/٦ .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال – قال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – :" ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم :" النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم " وأيما مؤمن ترك مالاً فلورثته وعصبته من كانوا ، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني وأنا مولاه " (١) .

وكان النبي – صلي الله عليه وسلم – في بداية الأمر يمتنع عن الصلاة على الميت المديون ، وذلك لئلا يتساهل الناس في أمر أداء الديون لمستحقيها ، ويقول – صلي الله عليه وسلم : صلوا على الميت ، فلما وسَّع الله عليه ، كان يقول : من ترك مالاً فلورثته ومن ترك ديناً أو ضياعاً _ أي عيالاً – فأنا أولى به ، فكان هذا رحمة منه – صلي الله عليه وسلم – بأمته .

وقوله تعالى :" وأزواجه أمهاتهم " أي حرمة أزواجه – صلي الله عليه وسلم – حرمة أمهاتهم عليهم في أنهن يحرم عليهم نكاحهن من بعد وفاته – صلي الله عليه وسلم – كما يحرم على الرجل نكاح أمه ، وذلك من باب تعظيم النبي – صلي الله عليه وسلم – وهى من خصوصيات النبي – صلي الله عليه وسلم (٢) .

وقوله تعالى :" وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ."

يعنى في التوريث ، فقد لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة ، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجرين فأنزل الله هذه الآية .

فبين الله سبحانه أن أولى الأرحام أولى بالتوريث من غيرهم ؛ لأن القرابة أحق بالتوريث من غيرها ، وهذه الآية ناسخة لما كان عليه المسلمون في صدر الإسلام بالتوارث بالهجرة أو بالموالاة .

---

(١) صحيح البخاري : أبو عبد الله البخاري الجعفي محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ) – دار ابن كثير – اليمامة – بيروت ١٤٠٧– ١٩٨٧ ط٣ – كتاب التفسير – باب النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ٤/١٧٩٥ .

(٢) الطبري ٢١/١٢٢ .

قال قتادة : لما نزل قوله تعالى في سورة الأنفال :" والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا " [١] ، فتوارث المسلمون بالهجرة ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية " وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ...." .

وقيل : هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين ، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن أو آية المواريث ، وقوله سبحانه " من المؤمنين " يجوز أن يكون بياناً لأولى الأرحام ، والمعنى : إن ذوى القرابات من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض [٢] .

وقوله تعالى :" إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً " أي من صدقة أو وصيه ، فإن ذلك جائز .

قال محمد بن الحنفية : نزلت هذه الآية في إجازة الوصية لليهودي والنصراني ،فالكافر وليٌ في النسب ، لا في الدين ، فتجوز الوصية له [٣] .

وفي كلامه نظر ، لأن الوصية من باب التبرعات والصدقات ، وينبغي أن توجه للمسلم القريب الذي لا يرث ثم من هو أقل منه في درجة القرابة ، ولأن اليهودي والنصراني قد تعينه هذه الوصية بالمال على محاربة الإسلام وأهله ، فيقوى بها ويُغز ، بينما في منعها إياه وتوجيهها للمسلمين عزة ومنعة وقوة لدين الله سبحانه .

ولما نسخ الله سبحانه وتعالى التوارث بالحلف والهجرة ؛ أباح لهم أن يوصى لهم والله أعلى وأعلم .

قال مجاهد : أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة بحق الإيمان والهجرة والإشارة بقوله تعالى :" كان ذلك " إلى ما تقدم ذكره أي كان نسخ الميراث بالهجرة

---

(١) الأنفال ٧٢ .

(٢) فتح القدير : محمد بن على الشوكاني (١٢٥٠هـ) – دار الفكر – بيروت د/ت ٢٦٢/٤

(٣) فتح القدير ٢٦٢/٤ .

والمحالفة والمعاهدة ورده إلى ذوى الأرحام من القرابات في الكتاب مسطوراً أي في اللوح المحفوظ أو في القرآن مكتوباً .

ولما كان النبي – صلي الله عليه وسلم – أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، كان حبه وإيثاره على النفس فرضاً على كل مسلم ، حتى يكون إيمانه كاملاً ، يقول – صلي الله عليه وسلم – :" والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين " (١) .

ولذلك لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله – صلي الله عليه وسلم – : لأنت أحب إليَّ من كل شئ إلا نفسي ، فقال – صلي الله عليه وسلم – لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال ، يا رسول الله : والله لأنت أحب إليَّ من كل شئ حتى من نفسي ، فقال – صلي الله عليه وسلم – الآن يا عمر (٢) .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى :" وأزواجه أمهاتهم " أي في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع (٣) .

ميثاق الله مع الأنبياء

قوله تعالى :

" وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسي بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً"

---

(١) مجمع الزوائد : على بن أبى بكر الهيثمى (٨٠٧هـ) – دار الريان للتراث – دار الكتاب العربي – القاهرة – بيروت ١٤٠٧هـ . – باب فيمن حبهم إيمان ٨٨/١ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب الإيمان والنذور – باب كيف كان يمين النبي – صلي الله عليه وسلم ٢٤٤٥/٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٣ وما بعدها .

الإعراب :

وإذ : ظرفية لما مضى من الزمان .

أخذنا : فعل ماض مبنى على السكون لاتصاله بنا الفاعلين ، ونا الفاعلين فاعل ضمير مبنى على السكون في محل رفع .

النبيين : اسم مجرور بمن وعلامة جره الياء ، لأنه جمع مذكر سالم ، .

وإبراهيم : اسم معطوف مجرور وعلامة جره الفتحة ، لأنه اسم أعجمي ممنوع من الصرف .

ميثاقاً : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

أليماً : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

التفسير :

قوله تعالى :" وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ...."

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن أولى العزم من الرسل ، وهم خمسة : محمد – صلى الله عليه وسلم – ونوح وإبراهيم وموسى وعيسي بن مريم عليهم السلام ، وقد أخذ الله سبحانه وتعالى عليهم العهد والميثاق في إقامة الدين والتناصر وإبلاغ الرسالات كما قال تعالى :" وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين " (١).

فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم ، وقد صرح الله تعالى بأسماء أولى العزم من الرسل في آية أخرى ، يقول تعالى :" شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسي وعيسي أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ......" (٢) .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال :" خيار ولد آدم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسي ومحمد – صلي الله عليه وسلم – ، وخيرهم محمد صلي الله وسلم عليهم أجمعين " (٣) .

---

(١) آل عمران ٨١ .

(٢) الشورى ١٣ .

(٣) مجمع الزوائد – باب عظم قدره – صلي الله عليه وسلم – ٨/٢٥٥ .

وقيل : إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا من صورة الـذر من صلب آدم عليه السلام ، يقول ابن عبد البر :" قـال آخـرون معنـى الفطـرة المذكورة في المولودين ما أخذ الله من ذرية آدم من الميثاق قبل أن يخرجـوا إلـى الدنيا يوم استخرج ذرية آدم من ظهره ، فخاطبهم ألست بربكم قالوا بلـى فـأقروا جميعاً له بالربوبية عن معرفة منهم به ثم أخرجهم من أصـلاب آبـائهم مخلـوقين مطبوعين على تلك المعرفة وذلك الإقرار ، وليست تلك المعرفة بإيمـان ولا ذلـك الإقرار بإيمان ، ولكنه إقرار من الطبيعة للرب سبحانه فطرة ألزمها قلـوبهم ، ثـم أرسل إليهم الرسل ، فدعوهم إلى الاعتراف له بالربوبية والخضوع تصـديقاً بمـا جاءت به الرسل ، فمنهم من أنكر وجحد بعد المعرفة ، وهو به عارف ، لأنـه لـم يكن الله ليدعو خلقه إلى الإيمان به ، وهو لم يعرفهم نفسه ، إذ يكون حينئذ قد كلفهم الإيمان بما لا يعرفون ، قالوا : وتصديق ذلك قوله عز وجل : ولئن سـألتهم مـن خلقهم ليقولن الله " [(١)] ، وعن أبي بن كعب في قول الله عز وجل " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلي.." [(٢)] قال جمعهم جميعاً ، فجعلهم أرواحاً ، ثم صورهم ، ثم استنطقهم ، فقال : ألست بـربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم هذا ، قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنـا لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك ، قال : فإني أرسل إليكم رسلي ، وأنزل علـيكم كتبي ، فلا تكذبوا رسلي ، وصدقوا بوعدي ، وإني سأنتقم ممن يشرك بي ولم يؤمن بي ، قال : فأخذ عهدهم وميثاقهم ، ورفع أباهم آدم ، فنظر إليهم ، فرأى منهم الغنى والفقير ، وحسن الصورة وغير ذلك ، فقال : يارب لو سويت بين عبادك ، قـال : أحببت أن أشكر قال : والأنبياء يومئذ بينهم مثل السُرج ، قال : وخصوا بميثاق آخر للرسالة أن يبلغوها قال : فهو قوله تعالى : " وإذ أخذنا من النبيين ميثـاقهم ومنـك ومن نوح ." الآية ، قال وهى فطرة الله التي فطر الناس عليها " [(٣)] .

---

(١) الزخرف ٨٧ .

(٢) الأعراف ١٧٢ .

(٣) التمهيد : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (٤٦٣هـ) – وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية – المغرب – ١٣٨٧م ، ١٨/٩١ وما بعدها .

قال القرطبي : وإنما خص هؤلاء الخمسة من الرسل وإن كانوا قد دخلوا في زمرة النبيين تفصيلاً لهم ، لأنهم أصحاب الشرائع والكتب وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم [١] .

قوله تعالى " وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً " أي عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة وأن يصدق بعضهم بعضاً ، والميثاق هو اليمين بالله تعالى ، فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأول باليمين . وقيل : الميثاق الأول هو الإفراد بالله تعالى ، والثاني في أمر النبوة .

وقد قُدِّمَ محمد – صلي الله عليه وسلم – على سائر الرسل في الآية بالذكر ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – سئل عن قوله تعالى " وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ..." قال : "كنت أولهم في الخلق ، وآخرهم في البعث" .

قوله تعالى :" ليسأل الصادقين عن صدقهم " وفيه عدة معانٍ :

الأول : سؤال الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، وفي هذا تنبيه أي إذا كان الأنبياء يُسألون ، فكيف بمن سواهم ؟

الثاني : سؤال الأنبياء عما أجابهم به قومهم .

الثالث : سؤال الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم .

الرابع : سؤال الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة ، وفي التنزيل " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " [٢] .

وفائدة سؤالهم هنا توبيخ الكفار " وأعد للكافرين عذاباً أليماً " أي عذاب جهنم الموجع والعياذ بالله من عذابها " [٣] .

---

(١) القرطبي ١٤/١٢٧ .
(٢) الأعراف ٦ .
(٣) القرطبي ١٤/١٢٨.

غزوة الخندق ودروسها المستفادة

قوله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ."

الإعراب :

اذكروا : فعل أمر مبنى على حذف النون ، وواو الجماعة ضمير مبنى في محل رفع فاعل .

نعمة : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

جنود : فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه جمع تكسير .

لم تروها : لم أداة جزم للفعل المضارع .

تروها : فعل مضارع مجزوم بلم ، وعلامة جزمه حذف النون ، لأنه من الأفعال الخمسة والها ضمير مبنى في محل نصب مفعول به .

وجملة (لم تروها) في محل نصب نعت لكلمة (جنوداً) .

تعملون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ، وواو الجماعة فاعل .

بصيراً : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

التفسير :

والآية تتحدث عن غزوة الأحزاب – وهم قريش وغطفان ويهود بنى النضير – وتسمى أيضاً بغزوة الخندق ؛ لأن المسلمين حفروا خندقاً ، فكان سبباً في عدم قدرة العدو على اختراقه المدينة .

وكان المسلمون في حالة كرب عظيم ، فأعقبها بحمد الله تعالى حالة من النعمة والرخاء والغبطة والأمن [(١)] .

هذا وقد اختلف في أي سنة كانت غزوة الخندق ، فقيل في شوال من السنة الخامسة ، وقيل : في السنة الرابعة .

---

(١) القرطبي ١٢٨/١٤ وما بعدها .

وكان سببها أن نفراً من اليهود ، منهم كنانة بن الربيع ، وسلام بن أبي الحقيق وغيرهم من بنى النضير هم الذين حزبوا الأحزاب ، وألبوا وجمعوا وخرجوا في نفر من بني النضير ونفر من بنى وائل ، فأتوا إلى حرب رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وواعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك ، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك ، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم ، فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى على فزارة ، والحارث بن عوف المرى على بنى مرة ، ومسعود بن رخيلة على أشجع ، فلما سمع النبي – صلي الله عليه وسلم – باجتماعهم وخروجهم شاور أصحابه ، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق ، فرضي رأيه ، وقال يومئذ المهاجرون : سلمان منا ، وقال الأنصار : سلمان منا ، فقال الرسول – صلي الله عليه وسلم – سلمان منا أهل البيت .

وكان الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وهو يومئذ حر ، فقال يا رسول الله : إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا ، فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين ، ونكص المنافقون ، وجعلوا يتسللون لواذا ، فنزلت فيهم آيات من القرآن ، وكان من فرغ من المسلمين من حصته في الحفر ، عاد إلى غيره ممن لم يتم نصيبه في الحفر ، حتى كمل الخندق ، وكان فيه آيات بينات على نبوة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – .

ومن الدروس المستفادة من هذه الغزوة ما يأتى :

أولاً : مشاورة السلطان أصحابه وخاصته في أمر القتال .

ثانياً : التحصن من العدو بما أمكن من الأسباب واستعمالها .

ثالثاً : التعاون بين أفراد الجيش يؤدى إلى إنجاز المهام بنجاح ، لقوله تعالى : "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم.."[١] ، وقوله تعالى :" وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا علي الإثم والعدوان " [٢] .

---

(١) الأنفال ٦٠ .

(٢) المائدة ٢ .

وقد روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحــزاب ، وخندق رسول الله – صلي الله عليه وسلم – رأيته ينقل من تراب الخنــدق حتــى وارى عنى الغبار جلدة بطنه ، وكان كثيف الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمــات ابــن رواحة ، ويقول : اللهم لولا أنت ما اهتدينا ثم ولا تصدقنا ولا صلينا وأنزلن ســكينة علينا ثم وثبت الأقدام إن لاقينا [١] .

وقد كان في حفر الخندق من الآيات ما يدل على علامات النبوة ، فعن البراء بن عازب قال : لما أمرنا رسول الله – صلي الله عليه وسلم – أن نحفــر الخنــدق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله – صلي الله عليه وسلم – فجاء رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فألقي ثوبه ، وأخذ المعول وقال : بسم الله ، فضرب الصخرة ، فكسر ثلثها ، ثم قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكاني هذا ، قال ثم ضرب أخــرى ،وقال : بسم الله ، فكسر ثلثاً آخر ، قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ، واللّه إني لأبصر قصر المدائن الأبيض ، ثم ضرب الثالثة ، وقال : بسم الله ، فقطع الحجر ، وقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر باب صنعاء .. " [٢] .

فلما فرغ رسول الله – صلي الله عليه وسلم – من حفر الخندق أقبلت قــريش في نحو آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان بمن معها من أهــل نجد حتى نزلوا إلي جانب أحد ، وخرج رســول الله – صــلي الله عليــه وســلم – والمسلمون حتى نزلوا بظهر سلْع – جبل – في ثلاثة آلاف ، وضربوا عســكرهم ، والخندق بينهم وبين المشركين .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير – باب حفر الخندق ١٠٤٣/٣ .
وصحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (٢٦١هــ) – دار إحياء التراث العربي – بيروت د/ت – كتاب الجهاد والسير – باب غزوة الأحزاب وهى الخندق ١٤٣٠/٣ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (٢٣٥هــ) مكتبة الرشد – الرياض ط١ ١٤٠٩هــ ٣٧٨/٧ .

وقد خرج عدو الله حيي بن أخطب النضري إلي كعب بن أسد القرظي وكان كعب قد عاهد رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ، ولم يقبل كعب محاربة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ولا نقض عهده ، ولكن حيي بن أخطب ما زال به حتى غرر به ، وكان كعب يقول : لقد عاهدت محمداً – صلي الله عليه وسلم – ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً ، فلست بناقضه ، فلم يزل به حيي بن أخطب حتى رجع إليه وعاهده على خذلان محمد – صلي الله عليه وسلم – وأصحابه وأن يسير معهم ، وقال له حيي بن أخطب إن انصرفت قريش وغطفان دخلت عندك بمن معي من اليهود ، فلما علم النبي – صلي الله عليه وسلم – بالأمر بعث سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ وهو سيد الأوس ، وتأكدوا من خبر نقض ميثاقهم لرسول الله – صلي الله عليه وسلم – حتى شاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكانت فيه حدة ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فالذي بيننا وبينهم أكبر من ذلك ، ثم قفلوا راجعين إلي رسول الله لإخباره بالأمر ، فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – : أبشروا يا معشر المسلمين .

وقد اشتد خوف القوم – أي المسلمين – إذ جاءهم الأحزاب من كل اتجاه .

يقول تعالي :

" إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . "

الإعراب :

من أسفلَ : من حرف جر

أسفل : اسم مجرور بمن وعلامة جره الفتحة ، لأنه اسم ممنوع من الصرف .

الأبصار : فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة ، لأنه جمع تكسير .

تظنون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه ثبوت النون ، وواو الجماعة فاعل ضمير مبني في محل رفع .

بالله : الباء حرف جر ، الله لفظ الجلالة اسم مجرور بالباء ، وعلامة الجر الكسرة ؛ لأنه مفرد .

قال مالك : إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، والذين جاءوا من أسفل منهم قريش وغطفان ، وقد ذكرنا سبب الغزوة قبل .

يقول الشيخ سيد قطب : عظم البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، قال معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسري وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وقال أوس بن قيظى : يا رسول الله : إن بيوتنا عورة من العدو على ملأ من رجال قومه ، فأذن لنا أن نخرج ، فنرجع إلي دارنا ، فإنها خارج المدينة [1] .

فأقام النبي – صلي الله عليه وسلم – والمشركون على هذه الحال بضعاً وعشرين ليلة ، قريباً من شهر ، لم يكن بينهما حرب إلا الرمي بالنبل والحصار . واستشار رسول الله – صلي الله عليه وسلم – سيد الأوس سعد بن معاذ وسيد الخزرج سعد بن عبادة في أن يهادن غطفان بإعطائهم ثلث ثمار المدينة فقالا له : يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه ؟ أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال – صلي الله عليه وسلم – بل شئ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلي أمر ما ، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فأنت

---

(١) في ظلال القرآن : الشيخ سيد قطب ٢١/٢٨٣٤ – دار حوسبة النص العربي مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي د/ت .

وذاك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليجتهدوا علينا .

وأقام رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وأصحابه فيما وصف الله عز وجل من الخوف والشدة ، لتظاهر عدوهم عليهم ، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم قالت أم سلمة – رضي الله عنها – شهدت مع النبي – صلي الله عليه وسلم – مشاهد فيها قتال وخوف : المريسيع ، وخيبر ، وكنا بالحديبية ، وفي الفتح ، وحنين ، لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله – صلي الله عليه وسلم – ولا أخوف عندنا من الخندق ، وذلك لأن المسلمين كانوا في مثل الحرجة ، وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى ، فالمدينة تحرس حتى الصباح ، نسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصبحوا خوفاً ، حتى ردَّ الله تعالي الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيراً .

ويأتي دور نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان ، حيث أتى رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فقال له يا رسول الله : إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت . فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة (١) .

وقد فعل نعيم بحيلة منه ما أمره الرسول – صلي الله عليه وسلم – به من التخذيل ، حيث شكك بعضهم في بعض ، حتى أفقدهم الثقة في بعضهم البعض أي بين الأحزاب .

وبعث الله تبارك وتعالي عليهم الريح الشاتية الباردة ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم أي خيامهم وما يتخذونه للطبخ من مواقد وغيرها(٢) .

وكان عدد المشركين واليهود الأحزاب – نحو عشرة آلاف ، بينما كان عدد المسلمين نحو ثلاثة آلاف ، ولم يحدث مواجهة بين الفريقين إلا بعض المناوشات ،

---

(١) سنن الترمذى – أبو عيسي الترمذى السلمي محمد بن عيسي (٢٧٩هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت د/ت ١٩٣/٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٨٣٥/٢١

فقد اقتحم عمرو بن عبدود العامرى الخندق هو وبعض الفرسان الشجعان الذين اشتهروا بالجاهلية ، وخلصوا إلي ناحية من المسلمين ، فندب رسول الله – صلي الله عليه وسلم – خيل المسلمين إليه ، فيقال لم يبرز إليه أحد ، فأمر النبي – صلي الله عليه وسلم – عليًا – رضي الله عنه – فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله عليّ – رضي الله عنه– فكان ذلك علامة على النصر ثم أرسل الله تبارك وتعالى الريح العاتية القوية الباردة التي لم تبق لهم شيئاً إلا وأتت عليه ، فلم يبق لهم خيمة ولا موقد ولا قدر حتى قال أبو سفيان وهو قائد المشركين في ذلك الوقت : يا معشر قريش إنكم والله ما أصحبتم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخف ، واختلفت بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما يطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا ، فإني مرتحل ، ثم قام إلي جمله وهو معقول ، فوثب عليه وضربه حتى قام ورحل ، وقوله تعالى :" وجنوداً لم تروها " أي الملائكة ولم تقاتل يومئذ ، " وكان الله بما تعلمون بصيراً " ، أي صبركم أيها المؤمنون على ما نزل بكم من كرب وجهد وشدة ، فهو سبحانه وتعالى يجازيكم به (١) .

مواقف المنافقين المكشوفة وصفاتهم الخبيثة

قوله تعالى :

" هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ."

الإعراب :

ابتُليَ : فعل ماض مبنى على الفتح مبنى للمجهول .

---

(١) تفسير الطبري ١٢٨/٢١ .

المؤمنون : نائب فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الواو ، لأنه جمع مذكر سالم .

زلزالاً : مفعول مطلق منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفـــرد وهـــو مبـــين للنوع .

شديداً : نعت منصوب ، وعلامة نصبة الفتحة ، لأنه مفرد .

المنافقون : فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الواو ، لأنه جمع مذكر سالم .

مرض : مبتدأ مؤخر مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخـــره ، لأنـــه مفرد وشبه الجملة قبله (في قلوبهم) خبر مقدم في محل رفـــع والجملـــة الاسمية (في قلوبهم مرض) صلة الموصول لا محل لها من الإعراب .

يا أهلَ : يا : أداة نداء ، وأهل منادى مضاف منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة .

يثرب : أهل مضاف ويثرب مضاف إليه مجرور بالفتحة ، لأنه اسم ممنـــوع مـــن الصرف ، وهو اسم على وزن الفعل .

فارجعوا : فعل أمر مبنى على حذف النون ، وواو الجماعة فاعل ضمير مبنى على السكون في محل رفع .

بيوتَنا : اسم إن منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه جمع تكسير وبيوت مضاف والنا : ضمير مبنى على السكون في محل جر مضاف إليه .

عورة : خبر إن مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه مفرد والجملـــة (إن بيوتنـــا عورة) في محل نصب مفعول به جملة مقول القول .

التفسير :

قوله تعالى : " هنالك ابتلى المؤمنون " أي اختبروا ليتبين المخلص من غيره زلزلوا أي حركوا من شدة الفزع والخوف والهلع .

واذكر إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض أي ضعف اعتقادهم فيمـــا وعدهم به يا محمد من نصرة الإسلام وميراثهم الأرض ، أي وعـــده – صـــلي الله

عليه وسلم – لهم كنوز كسري وقيصر ، فقال المنافقون : كل ما وعدنا به محمد – صلي الله عليه وسلم – هو الغرور بعينه أي الباطل [١] .

وقد قالت طائفة منهم ، وهم المنافقون : يا أهل يثرب ، وهى أرض المدينة ، ولم تصرف للعلمية ووزن الفعل ، لا إقامة لكم ولا مكانة لكم هاهنا ، فارجعوا إلي منازلكم من المدينة ، وكانوا خرجوا مع النبي – صلي الله عليه وسلم – إلي سلع وهو جبل خارج المدينة للقتال .

ويستأذن فريق منهم النبي – صلي الله عليه وسلم – وهم المنافقون قائلين : إن بيوتنا عورة أي غير حصينة يخشي عليها وما هي كذلك ، ما يريدون إلا الهرب من القتال وهم الذين ظنوا أن محمداً – صلي الله عليه وسلم – وأصحابه يُستأصلون ، بينما أيقن المؤمنون بأن ما وعدهم الله به من النصر حق ، وأن الله سبحانه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون [٢] .

فكانت هذه الغزوة تمحيصاً لجميع المسلمين ، فمنهم من ظن بالله ظناً لا يليق به كمسلم ، فظهر نفاقه ، ومنهم من ثبت على إيمانه وظنه الحسن بالله تعالى في أنه ناصر عبده – صلي الله عليه وسلم – .

قوله تعالى :

" ولو دُخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولاً ."

الإعراب :

دخلت : فعل ماض مبنى على الفتح – مبنى للمجهول – والتاء للتأنيث ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره (هى).

---

(١) راجع تفسير الجلالين ٥٥١/١ .

(٢) تفسير الجلالين : محمد بن أحمد وعبد الرحمن بن أبي بكر والسيوطي – دار الحديث بالقاهرة – ط١ – د/ ت – ٥٥١/١

سُئِلُوا : فعل ماض مبنى على الضم ، والواو : ضمير مبنى على السكون في محـل رفع نائب فاعل .

الفتنة : مفعول به ثانٍ منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد

يولون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع ثبوت النون ، لأنــه مــن الأفعـال الخمسة ، وواو الجماعة : ضمير مبنى على السكون في محل رفع فاعل .

مسئولاً : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

التفسير :

قوله ، ولو دخلت أي المدينة ، أي دخلها الأحزاب أعداء الله تعـالى ، مـن أقطارها أي من نواحيها وجوانبها ، و أحدها قطر ، ثم سئلوا الفتنة أي طلب مـنهم الرجوع عن الإيمان إلي الشرك والكفر بالله عز وجل ، لآتوها أي لفعلوا ورجعـوا دون تردد ، لقوله تعالى :" وما تلبثوا بها إلا يسيراً .." أي ما احتسبوا عن إجـابتهم إلي الشرك إلا يسيراً قليلاً ، ولأسرعوا إلي ذلك طيبة بها نفوسهم والعياذ بالله .

وهنا يبين الله تبارك وتعالى مواقف المنافقين التي تكشف عن سوء نوايـاهم وسرائرهم ، وبإسراعهم إلي الكفر إذا ما دُعوا إليه خبيثة بذلك نفوسهم ، لأنها تطيب بهذا الكفر .

فالفتنة المذكورة هنا هى الكفر ، فيحملهم الخوف الذي كانوا فيه على المبادرة إلي الكفر والخروج من الإيمان والعياذ بالله (١) .

وهؤلاء المنافقون الذين يريدون الفرار من موقف الشدة والاختيار ويـدعون أن بيوتهم عورة وهم الذين عاهدوا الرسول – صلي الله عليه وسلم – من قبل علـى الثبات عند الشدة ، وكان ذلك من بنى حارثة لما كان من فعلهم في الخندق بعد الذي كان منهم بأحد . والله عز وجل يسألهم يوم القيامة عن هذا العهد والميثاق المـأخوذ عليهم لنصرة دين الله تعالى .

---

(١) تفسير الطبري ١٣٧/٢١

وبنو حارثة هم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بنى سلمة حين هما بالفشل يوم أحد ، ثم عاهدوا الله لا يعودون لمثلها ، فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم .

وقيل كان أناس قد غابوا عن وقعة بدر ، ورأوا ما أعطى أصحاب بدر من الكرامة والفضيلة ، فقالوا : لئن أشهدنا الله تعالى قتالاً مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لنقاتلن فساق الله تعالى ذلك إليهم حتى كان في ناحية المدينة .

فذكر الله تعالى هنا من مواقف المنافقين وسوء سلوكهم وسرائرهم ما يدل على ما يضمرونه للإسلام والمسلمين ، ومن هذه الأمور ظنهم السيئ بالله تعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم – ومنها استئذانهم وقت الشدة بحجة أن بيوتهم معرضة للسرقة ونحو ذلك ومنها نقض العهد المأخوذ عليهم والعياذ بالله .

قوله تعالى :

" قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً ، قل من الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ."

الإعراب :

ينفعكم : فعل مضارع منصوب بلن ، وعلامة نصبه الفتحة ، والكاف ضمير مبنى في محل نصب مفعول به والميم للجمع .

الفرارُ : فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه مفرد .

ولا يجدون : لا النافية ، ويجدون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه ثبوت النون ، لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبنى في محل رفع فاعل .

التفسير :

يقول الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – : قل يا محمد لهؤلاء الذين يستأذنونك في الانصراف عنك ، ويقولون إن بيوتنا عورة ، لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ؛ لأن أحدهما – أي الموت أو القتل – واصل إليكم لا محالة ، سواء كرهتم أو أحببتم ، شئتم أو أبيتم ، وإذاً لا تمتعون في هذه الحياة الدنيا

إلا بقدر مكثكم فيها ، لأن فراركم من الموت أو القتل لم يطل أعماركم ، ولا يمد في آجالكم ، بل أنتم تمتعون في هذه الحياة إلي الوقت المحدد الذي لا يتقدم ولا يتـأخر عندما يأتيكم الأجل المقدر الذي كُتب لكم ، وقل لهم يا محمد : أي لمن قـالوا : إن بيوتنا عورة ، وهم المنافقون الذين يستأذنونك للهرب من القتل أو الموت المحقـق : من ذا الذي يمنعكم من الله إن هو سبحانه أراد بكم سوءاً في أنفسكم من قتل أو بلاء أو رحمة من عافية وسلامة ، وهل ما يكون بكم في أنفسكم من سوء أو رحمـة أو عسر أو يسر إلا من قبل الله تبارك وتعالى ، لأنه ليس الأمر إلا ما قضـي الله بـه عليكم ، ولذلك فلن تجدوا من دونه تعالى من يتولاكم أو ينصركم ، فيدفع عنكم مـا أراد الله تعالى أن يصيبكم أو ينزل بكم من سوء (١) .

قوله تعالى :

" قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البـأس إلا قليلاً ، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لـم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ."

الإعراب :

المعوقين : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الياء ، لأنه جمع مذكر سالم .

بألسنة : الباء حرف جر ، وألسنة اسم مجرور بالباء وعلامة جره الكسـرة ، لأنـه جمع تكسير .

أولئكَ : اسم إشارة مبنى في محل رفع مبتدأ .

لم يؤمنوا : لم أداة جزم للفعل المضارع . ويؤمنوا : فعل مضارع مجـزوم بلـم ، وعلامة جزمه حذف النون ؛ لأنه من الأفعال الخمسـة ، وواو الجماعـة ضمير مبنى على السكون في محل رفع فاعل والجملة الفعلية (لم يؤمنـوا) في محل رفع خبر المبتدأ .

---

(١) تفسير الطبري ١٣٩/٢١

يسيراً : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة .

التفسير :

يقول تعالى :" قد يعلم الله المعوقين منكم ... " ليطلعنا على ما كان في نفوس هؤلاء الفئة الظالمة أنفسها بنفاقها والعياذ بالله من النفاق وأهله ، حيث يعوقون الناس من أصحاب رسول الله – صلي الله عليه وسلم – عن الجب عنه وعن شهود الحرب معه – صلي الله عليه وسلم – نفاقاً وتخذيلاً عن الإسلام وأهله ، وهم الذين يقولون لإخوانهم وهم من على شاكلتهم تعالوا إلينا وذروا محمداً – صلي الله عليه وسلم – فلا تشهدوا معه مشهداً ، فإنا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه ، فهم يعتقدون في هذا المشهد الأليم عندما تحزبت عليهم قوى الشرك والكفر أن محمداً – صلي الله عليه وسلم – ومن معه هالكون لا محالة ، وهذا هو ظنهم الذي ظنوه بالله تعالي وبالمؤمنين ؛ ولذا فهم لا يأتون البأس أي لا يشهدون الحرب والقتال إن شهدوا إلا ليدفعوا عن أنفسهم المؤمنين .

وقوله تعالي :" أشحة عليكم " وصف آخر لهؤلاء المنافقين ، فقيل : أشحة عليكم في الغنيمة ، وقيل : أشحة عليكم بالخير ، وقيل : أشحة عليكم بالنفقة على ضعفاء المؤمنين منكم .

قال الطبري في تفسيره : والصواب عندي من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح ، ولم يخصص وصفهم من معاني الشح بمعنى دون معنى ، فهم كما وصفهم الله تعالى به أشحة على المؤمنين بالغنيمة والخير والنفقة في سبيل الله تعالى على أهل المسكنة من المسلمين ، ونصب قوله أشحة عليكم على الحال من ذكر الاسم الذي في قوله تعالى :" ولا يأتون البأس إلا قليلاً " ، وكأنه يقول : هم جبناء ثم البأس ، ثم أشحة ثم الغنيمة بالغنيمة " [١] .

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١٤٠

ووصفهم الله عز وجل بهذه الأوصاف الخبيثة ، لما في صدورهم من حقد وعداوة وضغينة على الرسول – صلي الله عليه وسلم – ومن معه من المؤمنين .

وقوله تعالى :" فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت " أي إذا حضر البأس ، وجاء القتال ، خافوا على أنفسهم الهلاك والقتل ، وحينئذ تراهم ينظرون إليك لواذاً بك تدور أعينهم خوفاً من القتل وفراراً منه ، كمن غشيه الموت ، فالميت عندما يغشاه الموت تدور عيناه من الموت النازل به ؛ هكذا حالهم عند البأس وملاقاة العدو ، وعندما تنتهي الحرب وتنقطع أسبابها اطمأنوا واشتدوا عليكم في القول ، وخاطبوكم أشد مخاطبة بألسنة ذربة ، فإنه يقال للرجل الخطيب الذرب اللسان خطيب مسلق ، ومصلق ، وخطيب سلاق بجوازهما [١] .

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي وصف الله تعالي به المنافقين أنهم يسلقون المؤمنين به ، فقال بعضهم ذلك سلقهم إياهم ثم الغنيمة بمسألتهم القسم لهم ، فيقولون : أعطونا أعطونا فإنا قد شهدنا معكم ، أما ثم البأس فأجبن قوم وأخذله للحق .

وقيل : بل ذلك سلقهم إياهم بالأذى ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – " سلقوكم بألسنة حداد أي استقبلوكم [٢] .

هذا لأنهم لا يرجون الآخرة ، ولا تحملهم حسبة ، فهم يهابون الموت هيبة من لا يرجو ما بعده ، وفعلهم هذا لا شك فيه الأذى للمؤمنين .

فهؤلاء المنافقون الذين اتصفوا بهذه الصفات الخبيثة لم يؤمنوا حق الإيمان ، لأنهم لم يصدقوا الله ورسوله ، ولكنهم أهل كفر ونفاق ، ولذا فقد أحبط الله سبحانه وتعالى أعمالهم ، أي أذهب أجورهم ، وأبطل أعمالهم .

---

(١) راجع مادة (س ل ق) مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي مكتبة لبنان ١٩٩٩ صـ ٢٧٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٤١/٢١ .

وقيل الذي أحبط عمله كان بدرياً ، وأن قوله : " فأحبط الله أعمـــالهم " ، أي أحبط الله عمله يوم بدر ، وإحباط هذا العمل الذي كانوا قد عملـــوه قبـــل ارتـــدادهم ونفاقهم عمل يسير على الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى :

" يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأتِ الأحزابُ يودوا لو أنهم بادون فـــي الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ."

الإعراب :

وإن : أداة شرط تجزم فعلين .

يأتِ : فعل مضارع فعل الشرط مجزوم ، وعلامة جزمه حذف حرف العلة .

الأحزاب : فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه جمع تكسير .

يودوا : فعل مضارع (جواب الشرط) مجزوم ، وعلامة جزمه حذف النون ، لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبنى على السكون في محل رفع فاعل .

بادون : خبر إن مرفوع ، وعلامة رفعه الواو ، لأنه جمع مذكر سالم .

يسألون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه ثبوت النون ؛ لأنـــه مـــن الأفعـــال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل .

قاتلوا : فعل ماض مبني على الضم ؛ لاتصاله بواو الجماعة ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل.

والجملة الفعلية (ما قاتلوا إلا قليلا) جواب الشرط .

التفسير :

قوله تعالى : " يحسبون الأحزاب لم يذهبوا .." أي بسبب جبـــنهم وخـــوفهم الشديد من الهلاك والموت يظنون أن الأحزاب لم ينصرفوا ، وكانوا قد انصـــرفوا ،

ولكنهم لم يتباعدوا في السير ، وإن يأت الأحزاب أي وإن يرجعوا إليهم للقتال يودوا لو أنهم بادون في الأعراب أي تمنوا أن يكونوا مع الأعراب حذراً من القتل وتربصاً للدوائر .

والأعراب هم العرب الذين يسكنون في البادية من البدو وهو الظهور، وقوله تعالى : " يسألون عن أنبائكم .." أي يتساءلون عن أنبائكم أي أخبار النبي – صلي الله عليه وسلم – فيقولون : أما هلك محمد – صلي الله عليه وسلم – وصحبه ، أما غلب أبو سفيان وأحزابه ، أي يودون لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم هل أصبتم يا معشر المسلمين دون حضور أو مشاهدة للقتال لفرط جبلهم .

وقيل كان منهم في أطراف المدينة من لم يحضر الخندق ، جعلوا يسألون عن أخباركم ، ويتمنون هزيمة المسلمين ، ولو كانوا أي هؤلاء المنافقون فيكم أثناء القتال ما قاتلوا إلا قليلاً رمياً بالنبل والحجارة على سبيل الرياء والسمعة ، ولو كان ذلك لوجه الله تعالى خالصاً لكان عند الله قليله كثيراً (١) .

ثبات المؤمنين وصدقهم مع الرسول القدوة

قوله تعالى :

" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ."

الإعراب :

كان : فعل ماض ناقص ناسخ مبني على الفتح .

في رسول الله : في حرف جر .

رسول : اسم مجرور بفي ، وعلامة جره الكسرة ، لأنه مفرد ، ورسول مضاف ، والله : لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة ، وشبه الجملة (لكم) في محل نصب خبر كان مقدم .

أسوة : اسم كان مؤخر مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه مفرد .

---

(١) راجع تفسير القرطبي ١٤/١٥٥

حسنة : نعت مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه مفرد .

يرجو : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة المقدرة ، لأنه معتل الآخـر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) ، وجملة (يرجو الله واليوم الآخـر) في محل نصب خبر كان .

التفسير :

هذه الآية فيها عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله – صلي الله عليه وسلم– أي كان لكم قدوة يحتذي بها في شخص النبي – صلي الله عليه وسلم – حيث بذل نفسه لنصرة دين الله عز وجل في خروجه إلي الخندق .

وقرأ عاصم الأسوة بضم الهمزة ، وقرأ الباقون بالكسر ، وهما لغتان ، وجمع الأسوة الأُسى والإسي [١] .

وقيل : لقد كان لكم أسوة حسنة في جوع النبي – صلي الله عليه وسلم – كان لا يشبع من طعام يأكله قط [٢] .

والأسوة ما يتأسى به أي يتعزي به ، فيقتدي به في جميع أفعاله ويتعزي به في جميع أحواله ، فلقد شُجَّ وجهه – صلي الله عليه وسلم – وكسرت رباعيته ، وقتل عمه حمزة ، وجاع بطنه ، ولم يكن إلا صابراً محتسباً وشاكراً وراضياً ، فعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال : شكونا إلي رسول الله – صلي الله عليه وسلم – الجوع ، ورفعنا عن بطوننا عن حجر ، فرفع رسول الله – صلي الله عليه وسلم – عن بطنه حجرين [٣] .

---

(١) لسان العرب ١٤/٣٦ .

(٢) القرطبي ١٤/١٥٥

(٣) تحفة الأحوزى : أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (١٣٥٣هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت د/ت ٧/٣٣

وراجع الترهيب والترغيب : أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى المنذري (٦٥٦هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٧هـ ط١ ٤/٩٦ .

وفائدة ربط الحجر علي البطن أنها تضمن من الجوع ، فيخشي على انحناء الظهر بواسطة ذلك ، فإذا وضع فوقها الحجر ، وشد عليها العصابة ، استقام الظهر ، وقيل فائدة الحجارة أنها تسكن حرارة الجوع ببرد الحجر ، لأنها حجارة رقاق قدر البطن ، تشد الأمعاء ، فلا يتحلل شئ مما في البطن ، فلا يحصل ضعف زائد بسبب التحلل (١) .

وقد قال النبي – صلي الله عليه وسلم – حين شج : اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون ، وقوله تعالي :" لمن كان يرجو الله واليوم الآخر " قال سعيد بن جبير : المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ، ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال ، وقيل : لمن كان يرجو ثواب الله تعالي في اليوم الآخر .

وقوله تعالي : وذكر الله كثيراً " خوفاً من عقابه ، ورجاء لثوابه ، وقد اختلف فيمن أريد بهذا الخطاب فقيل : هو للمنافقين عطفاً على ما تقدم من خطابهم وقيل : هو للمؤمنين ، لقوله تعالي لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ولا يرجو الله واليوم الآخر إلا مؤمن .

ويجب الاقتداء برسول الله – صلي الله عليه وسلم – في أمور الدين ، بينما يستحب الاقتداء به – صلي الله عليه وسلم – في أمور الدنيا (٢) .

قوله تعالي :

" ولما رأي المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضي نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً" .

---

(١) راجع فتح الباري : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (٨٥٢هـ) دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ ٣٩٦/٧ .

(٢) راجع القرطبي في تفسيره ١٥٦/١٤ .

الإعراب :

المؤمنون : فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الواو ، لأنه جمع مذكر سالم .

قالوا : فعل ماض مبنى على الضم لاتصاله بواو الجماعة وهي فاعل .

هذا : اسم إشارة مبنى على السكون في محل رفع مبتدأ .

ما : اسم موصول بمعنى الذي مبنى على السكون في محل رفع خبر .

وعدنا : وعد فعل ماض مبنى على الفتح - والنا ضمير مبنى على السكون في محل نصب مفعول به .

الله : لفظ الجلالة فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه مفرد .

ورسوله : الواو حرف عطف .

رسوله : اسم معطوف مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه مفرد

ورسول مضاف ، والهاء : ضمير مبنى على الضم في محل جر مضاف إليه والجملة الفعلية (وعدنا الله ورسوله) لا محل لها من الإعراب صلة الموصول .

والجملة الاسمية (هذا ما وعدنا الله ورسوله) في محل نصب جملة مقول القول مفعول به .

تبديلاً : مفعول مطلق مؤكد للفعل منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

ليجزى : فعل مضارع منصوب باللام ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره

الله : لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد .

الصادقين : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الياء ؛ لأنه جمع مذكر سالم .

غفورا : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

التفسير :

قوله تعالي :" ولما رأي المؤمنون الأحزاب ..." بين الله سبحانه وتعالي مـــا وقع من المؤمنين المخلصين ثم رؤيتهم للأحزاب ومشاهدتهم لتلك الجيـــوش التـــي أحاطت بهم كالبحر فقال سبحانه : " ولما رأي المؤمنون الأحزاب قـــالوا هـــذا مـــا وعدنا الله ورسوله " فالإشارة بقوله تعالي هذا إلي ما رأوه مـــن الجيـــوش أو إلـــي الخطب الذي نزل والبلاء الذي دهم ، وهذا القول منهم قالوه استبشاراً بحصول مـــا وعدهم الله سبحانه وتعالي به ورسوله – صلى الله عليه وسلم – من مجـــيء هـــذه الجنود ، وأنه يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من عنـــد الله تعـــالي ، ثـــم أردفوا ما قالوه بقولهم : " وصدق الله ورسوله " ، أي ظهر صدق خبـــر الله تعـــالي ورسوله – صلي الله عليه وسلم – وما زادهم ما رأوه من مجـــيء هـــذه الجيـــوش المداهمة ونزول هذا البلاء بهم إلا إيماناً بالله وتسليماً لأمره تعالي .

فرؤيتهم لما نزل بهم لم يزدهم إلا إيماناً بربهم سبحانه وتعالي وتسليماً لقضاء الله تعالي النازل بهم[1] .

وقوله تعالي :" من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليـــه ...... " أي من صحابة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – المؤمنين – رجـــال مخلصـــون ، لأنهم عاهدوا على الثبات والنصرة والمقاتلة لأعداء الإسلام فوفّوا ما عاهدوا عليه ، وهؤلاء الصادقون فيما عاهدوا عليه هم الذين عاهدوا رسول الله – صلي الله عليـــه وسلم – ليلة العقبة على قتال من قاتله ، والذب عنه حتى يظهـــر ديـــن الله تبـــارك وتعالي في الأرض ، بخلاف من كذب عهده وخان الله ورسوله ، وهم المنـــافقون ، وقيل هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله – صلي الله عليـــه وســـلم – ثبتوا له ولم يفروا .

وقد قسم الله تعالي هؤلاء المخلصين إلي قسمين فقال سبحانه :" فمـــنهم مـــن قضي نحبه ومنهم من ينتظر " ، والنحب هو النذر ، فهؤلاء قد نذروا إن لقوا عدوهم

---

(١) راجع فتح القدير : محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠ هـــ) دار الفكر بيروت د/ت ٢٧١/٤

إما أن يحققوا النصر للإسلام أو يقتلوا في سبيل الله تعالي ، فمنهم من قضي نحبـه أي وفي بنذره ، فقُتل في سبيل الله تعالي ، ومنهم من لم يقتل فـي الحـرب ولكنـه ينتظر اللحظة الحاسمة التي يقدم فيها أنفس في ما هذه الدنيا وهى روحه الطـاهرة رخيصة في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

والمراد بالنحب ما التزمه الإنسان واعتقد الوفاء به ، وقيل أيضاً هو الحاجـة وإدراك الأمنية ، وقيل : النحب هو العهد .

وقد سبق أن المؤمنين في بدر عاهدوا الله تبارك وتعالي لئن قاتلوا المشركين ليرين الله منهم ما يري من إخلاص في العهد ، فلما كان يوم أحد كان مـنهم مـن قضي نحبه وقتل وحقق ما التزم به من تقديم نفسه لله تعالي لنصـره دينـه وذلـك كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر ، ومنهم من ينتظر قضاء نحبـه حتـى يحضر أجله كعثمان بن عفان ، وطلحة والزبير وأمثالهم ، فإنهم مسـتمرون علـى الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله – صـلي الله عليـه وسـلم – والقتال لعدوه ، ومنتظرون لقضاء حاجتهم وحصول أمنيتهم بالقتـل وإدراك فضـل الشهادة ، وقوله تعالي :" وما بدلوا تبديلاً " أي ما غيروا عهدهم الذي عاهـدوا الله عليه ورسوله – صلي الله عليه وسلم – على خلاف المنافقين الذين لم يثبتوا علـى الحق بل انكشف موقفهم عند الشدة وانفضح أمرهم أما الذين ينتظرون قضاء النحب فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا ولم يبدلوا .

قوله تعالي :" ليجزي الصادقين بصدقهم ..." أي وقع جميع ما وقع وحـدث كل ما حدث لأجل أن يُجازى كل منهم على قدر عمله وإخلاصـه وحسـن نيتـه ، فالصادقون يجازيهم الله عز وجل بسبب صدقهم بالجنة والمغفرة والرضي ، بينمـا يعذب الله عز وجل المنافقين على ما بدر منهم من مواقف كشـفت خبـث نوايـاهم وضعيف إيمانهم من تبديل وتغيير ، فهم أي المنافقون بما صدر عنهم كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بسبب تبديلهم وتغييرهم ، كما قصـد المؤمنـون الصـادقون بوفائهم وحسن نواياهم وقوة إيمانهم العاقبة المحمودة .

فكل منهم يُساق إلي عاقبته من الثواب أو العقاب على حسب طلبها والسعى لتحصيلها .

وقوله تعالي :" إن شاء " في تعذيب المنافقين أي إذا أقاموا على ما هم عليه من النفاق والكيد للرسول – صلي الله عليه وسلم – ولصحابته رضي الله عنهم ، فإن تركوا ذلك وتابوا عنه ، وصدقوا في توبتهم فإن الله تعالي غنى عن تعذيبهم ، فإنه سبحانه وتعالي غفور رحيم لمن تاب منهم ورجع واقلع عما وقع فيه من النفاق[1] .

عاقبة الأحزاب الخسران وخيبة الأمل

قوله تعالي :

" ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفي الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شئ قديراً ."

الإعراب :

لم ينالوا : لم أداة جزم .

ينالوا : فعل مضارع مجزوم بلم ، وعلامة جزمه حذف النون ، لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبنى على السكون في محل رفع فاعل .

خيرا : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

وكان الله : كان فعل ماضٍ – مبنى على الفتح – ناقص ناسخ .

الله : لفظ الجلالة – اسم كان مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة .

قويا : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

---

(١) فتح القدير ٢٧١/٤ وما بعدها .

فريقاً : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد بفعل محذوف تقديره " تقتلون " أو بالفعل الذي بعدها .

تقتلون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه ثبوت النون ، لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة فاعل .

وديارهم : الواو حرف عطف .

وديار اسم معطوف منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه جمع تكسير ، وديار مضاف والضمير (هم) مبنى في محل جر مضاف إليه .

التفسير :

قوله تعالي :" ورد الله الذين كفروا بغيظهم... " أي الأحزاب ، فقد صدهم الله عز وجل ، ومنعم عن الظفر بالمسلمين بغيظهم أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ، " لم ينالوا خيراً " أي لم يظفروا بالمسلمين ، وكان ذلك عندهم خيراً ، فخوطبوا بذلك ليتذكروا نعمة الله عليهم وفضله بنصره إياهم وقوله تعالي :" وكفي الله المؤمنين القتال " أي بالريح والملائكة ، " وأنزل الذين ظاهروهم " أي الذين أعانوهم وعاونوهم من بني قريظة وذلك أنهم نقضوا عهدهم مع رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فعاونوا الأحزاب على محاربة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وصاروا يداً واحدة مع المشركين على محمد – صلي الله عليه وسلم – وصحبه وقد ذكر أهل العلم بالسيرة أن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – لما انصرف من الخندق اغتسل فتبدى له جبريل عليه السلام قائلاً له : إنكم قد وضعتم سلاحكم ، وإن الملائكة لم تضع سلاحها منذ أربعين ليلة ، إن الله يأمرك أن تسير إلي بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم حصونهم ، فدعا النبي – صلي الله عليه وسلم – علياً كرم الله وجهه ، فدفع لواءه إليه ، وبعث بلالاً ، فنادى في الناس : إن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – يأمركم أن لا تصلوا العصر إلا ببني قريظة ، ثم سار إليهم – صلي الله عليه وسلم فحاصرهم خمسة عشر يوماً أشد الحصار ، وقيل : عشرين ليلة ، فأرسلوا إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم – أن أرسل إلينا أبا لبابة

بن عبد المنذر ، فأرسله إليهم ، فشاوروه في أمرهم ، فأشار إليهم بيده إنه الذبح ثـم ندم ، فقال : خنت الله ورسوله ، فانصرف فارتبط في المسجد حتى أنزل الله تعـالي توبته ، ثم نزلوا على حكم رسول الله – صلي الله عليه وسـلم – وجعـل النبـي – صلي الله عليه وسلم – الحكم فيهم إلي سعد بن معاذ ، وكان بينهم وبينـه حلـف ، فرجا اليهود فيه الهوادة معهم ، فحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه المواسـى ، وتسبى النساء والذراري ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله – صلي الله عليه وسـلم – : لقد حكمت بحكم الله تعالي من فوق سبع سـموات ، وانصـرف رسـول الله – صلي الله عليه وسلم – وأمر بهم فادخلوا المدينة ، وحفر لهم أخدود فـي السـوق ، وجلس رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ومعـه أصـحابه ، واخرجـوا إليـه ، فضربت أعناقهم ، وكانوا ما بين الستمائة إلي السبعمائة [١] .

وقوله تعالي :" صياحيهم " أي حصونهم أي ما تحصنوا به حتـى لا يـدخل عليهم المسلمون ، فهي تمنع من أراد دخولها عليهم ، ومفرد صياصى صيصية . " وقذف في قلوبهم الرعب " أي ألقي فيها الخوف والهلع ، " فريقـاً تقتلـون " وهـم الرجال ومن جرت عليهم المواسى " ، " وتأسرون فريقاً " أي النساء والذراري .

وقوله تعالي : " وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم " أي عقـارهم ونخـيلهم ومنازلهم وأموالهم من الذهب والفضة والحلي والعبيد والإماء .

وقوله تعالى : " وأرضا لم تطئوها " أي لم تطئوها بأقدامكم بعد وهـي ممـا سنفتحها عليكم .

وقيل : هي أرض فارس والروم ، وقيل : ما ظهر عليه المسلمون إلي قيـام الساعة ، وقيل : هي مكة ،وقيل : هي خيبر [٢] .

---

(١) زاد المسير ٦/٣٧٣ وما بعدها .

(٢) راجع السيرة النبوية : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى (٢١٣هـ) – دار الجيل – بيروت ١٤١١ هـ ط١ ٤/١٩٢ وما بعدها .

قوله تعالي : " وكان الله علي شئ قديراً ." أي قادراً علــى هزيمــة هــؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا لمحاربة الإسلام والمسلمين ، فإن له سبحانه وتعالي جنداً لا يعلم عددها إلا هو سبحانه وتعالي .

تخيير زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

قوله تعالي :

" يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الــدنيا وزينتهــا فتعــالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يُضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يَسيراً ومن يقنت منكن لله ورســوله وتعمــل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ." .

الإعراب :

النبي : نعت مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره .

تردن : فعل مضارع مبنى على السكون ، لاتصاله بنون النسوة ، ونــون النســوة فاعل .

الحياة : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

الدنيا : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة المقدرة ، لأنه اسم مقصور والجملــة الفعلية (تردن الحياة الدنيا) في محل نصب خبر كان .

أمتعكن : فعل مضارع مجزوم ، وعلامة جزمه السكون في جواب الطلــب وكــنَّ ضمير مبنى في محل نصب مفعول به .

سراحاً : مفعول مطلق منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

فإن : الفاء واقعة في جواب الشرط ، إن حرف توكيد ونصب .

الله : لفظ الجلالة اسم إن منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة .

أعد : فعل ماض مبنى على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

للمحسنات : اللام حرف جر ، والمحسنات اسم مجرور باللام ، وعلامة جره الكسرة ، لأنه جمع مؤنث سالم ، والجملة الفعلية (أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) في محل رفع خبر إن .

العذاب : نائب فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، لأنه مفرد .

يسيراً : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

كريماً : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

التفسير :

خيّر الله تبارك وتعالي نساء النبي – صلي الله عليه وسلم – بأمر منه لرسوله – صلي الله عليه وسلم – بين الحياة الدنيا وما فيها من زينة ومتاع بمفارقته – صلي الله عليه وسلم – وبين الصبر على ما عنده – صلي الله عليه وسلم– من ضيق الحال ، فاخترن ، رضي الله عنهن – الله ورسوله – صلي الله عليه وسلم – فسره ذلك .

فقوله تعالي :" يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً .." أمر من الله سبحانه وتعالي لرسول الله – صلي الله عليه وسلم – بأن يخير نساءه بين مفارقته ، فيذهبن إلي غيره ممن له مال وفير ، فيحصل لهن عنده الحياة الدنيا بمتعتها وما فيها من ملذات العيش ، وبين الصبر على ما عند رسول الله – صلي الله عليه وسلم – من ضيق الحال ، على أن يكون لهن الثواب الجزيل عند الله تعالي في الآخرة ، فلما خيرهن وبدأ بعائشة – رضي الله عنها – اخترن الله ورسوله ، فجمع الله سبحانه وتعالي لهن خير الدنيا وسعادة الآخرة [١] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ٣/٤٨٠ وما بعدها .

روى البخاري – رحمه الله – أن عائشة – رضى الله عنها – جاءها رسول الله – صلي الله عليه وسلم – حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه ، قالت : فبدأ بي رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فقال : " إني ذاكر لك أمراً ، فـلا عليـك ألا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك – وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه – قالت: ثم قال : " إن الله تعالي قال :" يا أيها النبي قل لأزواجك ..." إلى تمـام الآيتـين ، فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبويّ ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

وقد فعل النبي – صلي الله عليه وسلم – ذلك مع سائر أزواجه ، ففعلن مثـل فعل عائشة رضي الله عنها أي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ففرح النبـي – صلي الله عليه وسلم – بذلك وضحك [1] .

وروى الإمام أحمد – رحمه الله – أن أبا بكر – رضـي الله عنـه – أقبـل يستأذن على رسول الله – صلي الله عليه وسلم – والناس ببابه جلوس ، والنبـي – صلي الله عليه وسلم – جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمـر – رضـي الله عنـه – فاستأذن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – بالدخول فدخلا ، والنبي – صلي الله عليه وسـلم – جـالس وحوله نساؤه ، وهو – صلي الله عليه وسلم – ساكت ، فقال عمر – رضي الله عنه – لأكلمن النبي – صلي الله عليه وسلم – لعله يضحك ، فقال عمر – رضي الله عنه – يا رسول الله رأيت ابنة زيد – يعنى امرأة عمر – سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبي – صلي الله عليه وسلم – حتى بدت نواجذه ، وقال :" هـن حـولي يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر – رضي الله عنه –إلي عائشة ليضربها ، وقال عمر – رضي الله عنه – إلي حفصة كلاهما يقولان تسألان النبي – صلي الله عليه وسلم – ما ليس عنده فنهاهما رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فقلن والله لا نسأل رسول الله – صلي الله عليه وسلم – بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال وأنزل الله تبـارك

---

(١) صحيح البخاري – كتاب التفسير – باب قوله تعالى : " يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا ... " ٤/١٧٩٦ .

وتعالي الخيار ، فبدأ بعائشة – رضي الله عنها – فقال :" إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك " قالت : وما هو ؟ قال – صلي الله عليه وسلم –فتلا عليها قوله تعالي :" يا أيها النبي قل لأزواجك .." الآية ، قالت عائشة – رضي الله عنها – أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالي ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال – صلي الله عليه وسلم – :" إن الله تعالي لم يبعثني معنفاً ، ولكن بعثني معلماً ميسراً لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها " (١) .

قوله تعالي :" فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً .." قال ابن كثير : يعنى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن ، وقد اختلف العلماء في جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين : أصحهما نعم لو وقع ليحصل المقصود من السراح . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش ، وهن : عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن ، وكانت تحته صفية بنت حيي النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين (٢) .

وقال الإمام النسفي في قوله تعالي :" يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها " أي السعادة في الدنيا وكثرة الأموال (فتعالين) ، أي أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين ، ولم يرد نهوضهن إليه بأنفسهن كقوله قام يهددني (أمتعكن) أعطكن متعة الطلاق ، وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطء (وأسرحكن) وأطلقكن (سراحاً جميلاً) أي لا ضرر فيه حين أردن منه – صلي الله عليه وسلم – شيئاً من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة ، وتغايرن ، فغم رسول الله – صلي الله عليه وسلم – من ذلك ، فنزلت الآية فبدأ بعائشة – رضي الله

---

(١) مسند الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) – مؤسسة قرطبة – مصر – د/ت – ٣٢٨/٣ حديث رقم (١٤٥٥٥) .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٢/٣ .

التفسير :

قوله تعالى : " يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ... " .

يأمر الله تبارك وتعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالتزام هذه الآداب السامية التي ينبغي أن يكون عليها أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ هن لسن كأحد من نساء العالمين ، بل هن زوجات لخير نبي وأكرم رسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فيجب عليهن أن يكن متحليات بهذه الآداب التي أمرهن الله سبحانه وتعالى بها ، وأول هذه الآداب – إن أردتن التقوى أو إن كنتن متقيات – أن لا تخضعن بالقول أمام الرجال ، والمراد ألا يجئن بقول فيه لين وخنوثة ورقة وترخيم فيكون هذا من باب استدعاء شهوات الرجال الذين في قلوبهم ريبة وفجور ودغل .

فخطاب النساء أمام الأزواج ينبغي أن يغاير خطابهن أمام الرجال الأجانب ، وهذا الحكم الشرعي ليس موجها إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم فحسب – رغم منزلتهن ودرجتهن وتفضيلهن على نساء العالمين – بل هو موجه إلى كل امرأة مسلمة تؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا وبالقرآن منهاجا ودستورا ، فلا يجوز للمرأة أن تتكسر في كلامها أمام رجل أجنبي ؛ لأن ذلك فيه دعوة صريحة إلى الوقوع في الفاحشة التي نهى عنها المولى عز وجل عباده بقوله تعالى : " ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا " (١) .

فالله عز وجل لا يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، ولذا نهى عن كل ما يقرب من الوقوع فيها ، سلمنا الله وإياكم من ذلك .

هذا فيما يختص بالقول باللسان ، فما بالنا بما يحدث بالفعل من أمور تدعو إلى الوقوع في الهاوية والعياذ بالله من إدخال المرأة الرجال الأجانب عليها في بيتها

---

(١) الإسراء ٣٢ .

دون علم زوجها أو استدعائها لهم في غيبة زوجها ، وخاصة أقارب الزوج مثل أخيه ، فهو الحمو الذي حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : " الحمو الموت " [١] فينبغي على كل امرأة ملتزمة أن تراعي أوامر الله ونواهيه حتى تعيش الأسرة المسلمة في رغد من العيش والأمن والود والوفاء .

ثم أمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقلن قولا معروفا اى قولا جميلا حسنا معروفا في الخير .

ثم يبين الله تبارك وتعالى بقوله : " وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ... " لنساء النبي أن يلزمن بيوتهن ، فلا يخرجن منها إلا لضرورة أو حاجة ، فإن خرجن التزمن الأدب في الحديث مع الآخرين من الرجال ، فلا يخضعن بقول فيه ترخيم ، ولا يظهرن شيئا مما ينبغي أن يكون مستورا ، ولا يمشين مشية فيها إغراء لإثارة غرائز الرجال ، وكذا كل أمر أو نهي من الله تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة هو خطاب موجه لجميع النساء المؤمنات ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذه الآداب فيها ما فيها من أسس تربية المرأة المسلمة على الطهر والعفة والنقاء والوقار .

ومن الحوائج الشرعية لخروج المرأة من بيتها الصلاة في المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات " [٢] وعن أنس رضي الله عنه قال : جاءت النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن يا رسول الله : ذهب الرجال بالفضل بالجهاد في سبيل الله تعالى فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مهنة إحداكن في بيتها ، تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى " [٣] وفي رواية حسن تبعل المرأة لزوجها تعدل كل ذلك"

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح – باب " لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم " ٢٠٠٥/٥ .

(٢) سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأسدي (٢٧٥هـ) دار الفكر ، د، ت ، كتاب الصلاة - باب " ما جاء في خروج النساء إلى المسجد " ١٥٥/١ .

(٣) مسند أبي يعلى : أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ) – دار المأمون للتراث – دمشق – ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م – ط١ – ١٤١/٦ حديث رقم (٣٤١٦) .

التفسير :

قوله تعالى : " يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ... " .

يأمر الله تبارك وتعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالتزام هذه الآداب السامية التي ينبغي أن يكون عليها أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ هن لسن كأحد من نساء العالمين ، بل هن زوجات لخير نبي وأكرم رسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم فيجب عليهن أن يكن متحليات بهذه الآداب التي أمرهن الله سبحانه وتعالى بها ، وأول هذه الآداب – إن أردتن التقوى أو إن كنتن متقيات – أن لا تخضعن بالقول أمام الرجال ، والمراد ألا يجئن بقول فيه لين وخنوثة ورقة وترخيم فيكون هذا من باب استدعاء شهوات الرجال الذين في قلوبهم ريبة وفجور ودغل .

فخطاب النساء أمام الأزواج ينبغي أن يغاير خطابهن أمام الرجال الأجانب ، وهذا الحكم الشرعي ليس موجها إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم فحسب – رغم منزلتهن ودرجتهن وتفضيلهن على نساء العالمين – بل هو موجه إلى كل امرأة مسلمة تؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا وبالقرآن منهاجا ودستورا ، فلا يجوز للمرأة أن تتكسر في كلامها أمام رجل أجنبي ؛ لأن ذلك فيه دعوة صريحة إلى الوقوع في الفاحشة التي نهى عنها المولى عز وجل عباده بقوله تعالى : " ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا " (١) .

فالله عز وجل لا يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، ولذا نهى عن كل ما يقرب من الوقوع فيها ، سلمنا الله وإياكم من ذلك .

هذا فيما يختص بالقول باللسان ، فما بالنا بما يحدث بالفعل من أمور تدعو إلى الوقوع في الهاوية والعياذ بالله من إدخال المرأة الرجال الأجانب عليها في بيتها

---

(١) الإسراء ٣٢ .

دون علم زوجها أو استدعائها لهم في غيبة زوجها ، وخاصة أقارب الزوج مثل أخيه ، فهو الحمو الذي حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : " الحمو الموت " [1] فينبغي على كل امرأة ملتزمة أن تراعي أوامر الله ونواهيه حتى تعيش الأسرة المسلمة في رغد من العيش والأمن والود والوفاء .

ثم أمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقلن قولا معروفا اى قولا جميلا حسنا معروفا في الخير .

ثم يبين الله تبارك وتعالى بقوله : " وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ... " لنساء النبي أن يلزمن بيوتهن ، فلا يخرجن منها إلا لضرورة أو حاجة ، فإن خرجن التزمن الأدب في الحديث مع الآخرين من الرجال ، فلا يخضعن بقول فيه ترخيم ، ولا يظهرن شيئا مما ينبغي أن يكون مستورا ، ولا يمشين مشية فيها إغراء لإثارة غرائز الرجال ، وكذا كل أمر أو نهي من الله تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة هو خطاب موجه لجميع النساء المؤمنات ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذه الآداب فيها ما فيها من أسس تربية المرأة المسلمة على الطهر والعفة والنقاء والوقار .

ومن الحوائج الشرعية لخروج المرأة من بيتها الصلاة في المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات " [2] وعن أنس رضي الله عنه قال : جاءت النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن يا رسول الله : ذهب الرجال بالفضل بالجهاد في سبيل الله تعالى فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مهنة إحداكن في بيتها ، تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى" [3] وفي رواية حسن تبعل المرأة لزوجها تعدل كل ذلك"

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح - باب " لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم " ٥/٢٠٠٥ .

(٢) سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأسدي (٢٧٥هـ) دار الفكر ، د، ت ، كتاب الصلاة - باب " ما جاء في خروج النساء إلى المسجد " ١/١٥٥ .

(٣) مسند أبي يعلى : أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ) - دار المأمون للتراث - دمشق - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - ط١ - ٦/١٤١ حديث رقم (٣٤١٦) .

وإن كان في خروجها فتنة وفساد ، فلا تخرج ، بل تلتزم بيتها وتصلي فيه ، فهو أفضل وأزكى وأطهر لها وللأمة بأسرها ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها "(١)

ويقول صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون بروحة ربها ، وهي في قعر بيتها"(٢) .

وقوله تعالى : " ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى .. " يعني خروج المرأة تمشي بين يدي الرجال وهو قول مجاهد .

وقال قتادة : يعني إذا خرجتن من بيوتكن ، وكانت لهن مشية وتكسر قبل الإسلام ، فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك .

وقال مقاتل بن حيان : التبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ، ولا تشده ، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ، وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانت فيما بين نوح وإدريس ألف سنة ، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان رجال الجبل صباحا ، وفي النساء دمامة ، وكان نساء السهل صباحا ، وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلا من أهل السهل في صورة غلام فآجر نفسه منه ، فكان يخدمه ، فاتخذ إبليس شيئا من مثل الذي يزمر فيه الرعاء ، فجاء فيه بصوت

---

(١) صحيح ابن خزيمة : أبو بكر السلمي النيسابوري محمد بن إسحاق بن خزيمة (٣١١هـ) – المكتب الإسلامي – بيروت – ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م – كتاب الإمامة في الصلاة – باب " اختيار صلاة المرأة في مخدعها على صلاتها في بيتها " ٩٥/٣ .

(٢) صحيح ابن خزيمة : كتاب الإمامة في الصلاة – باب " اختيار صلاة المرأة في بيتها على صلاتها في المسجد " ٩٣/٣ .

لم يسمع الناس مثله ، فبلغ ذلك من حوله ، فانتابهم يسمعون إليه واتخذوا عيدا ، يجتمعون إليه في السنة ، فيتبرج النساء للرجال ، قال : ويتزين الرجال لهن ، وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك ، فرأى النساء وصباحتهن ، فأتى أصحابه ، فأخبرهم بذلك ، فتحولوا إليهن ، فنزلوا معهن ، وظهرت الفاحشة فهو قول الله تعالى : " ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى " ، وهذا كله من تزيين إبليس عليه لعنة الله (١) .

وقال الإمام النسفي رحمه الله في تفسير هذه الآية : الجاهلية الأولى أى القديمة ، والتبرج التبختر في المشي وإظهار الزينة ، والتقدير : ولا تبرجن تبرجا مثل تبرج النساء في الجاهلية الأولى ، وهي الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، أو ما بين آدم ونوح عليهما السلام ، أو زمن داود وسليمان عليهما السلام ، والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما صلوات الله وسلامه ، أو الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام (٢).

قوله تعالى : " وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله " خص الصلاة والزكاة بالأمر ، ثم عَمَّ بجميع الطاعات ؛ تفضيلا لهما ؛ لأن من واظب عليهما جرتاه إلى ما ورائهما من الخير وسائر الطاعات.

والأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من الآيات المجملة في كتاب الله تعالى التي بينتها السنة .

والسنة لها المرتبة الثانية كمصدر من مصادر التشريع الإسلامي ، فهي المذكرة التفسيرية لكتاب الله تعالى فيما أجمل ، ولذلك من قال : أنا مؤمن بكتاب الله تعالى ولست مؤمنا بالسنة فقد كفر بإجماع العلماء ؛ لأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه من طاعة الله تعالى .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ٤٨٤/٣ وما بعدها .

(٢) تفسير النسفي ٣٠٢/٣ .

يقول تعالى : " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " [١] .
ويقول تعالى : " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " [٢] .
ويقول تعالى : " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى " [٣] .

ولولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استطعنا أن نعرف كيف نصلي ولا كيف نصوم ولا كيف نحج ولا كيف نزكي ، فهو صلى الله عليه وسلم الذي بين لنا كيفية الصلاة وأركانها وما يبطلها وعدد ركعاتها ، وهو صلى الله عليه وسلم الذي بين لنا متى نخرج الزكاة وما مقدارها ومن المستحقون لها ، وهو صلى الله عليه وسلم الذي وضح لنا كيفية الحج وأركانه وشروطه وواجباته ومبطلاته وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلم لنا في كل هذه الأمور ، فيقول صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتموني أصلي " [٤] ، ويقول صلى الله عليه وسلم : " خذوا عني مناسككم " [٥] .

والصلاة عماد الدين من تركها تهاونا أى جاحدا ؛ كفر بإجماع العلماء ، ومن تركها تكاسلا فهو فاسق أو كافر على خلاف بين العلماء .

والصلاة هي الصلة الروحية بين العبد وربه وهي الركن الوحيد الذي لا تجوز فيه الإنابة لا في حياة المسلم ولا بعد مماته ، وهي الركن الوحيد الذي فرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالملأ الأعلى ليلة أُسْرِىَ به صلى الله عليه وسلم ، وهذا إن دل على شئ إنما يدل على عظم هذا الركن في الدين ؛ ولذا

---

(١) الحشر ٧ .

(٢) النساء ٥٩ .

(٣) النجم ٣ .

(٤) صحيح ابن حبان : أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤هـ) – مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م – ط٢ – كتاب الصلاة – باب الآذان ٥٤١/٤ .

(٥) صحيح ابن خزيمة : كتاب المناسك – باب إباحة رمي الجمار يوم النحر راكبا ٢٧٧/٤ .

تارة نجد هذه الفريضة قد قرنت بالصبر ، فيقول تعالى : " واستعينوا بالصبر والصلاة"[١].

وتارة مقرونة بالذكر ، فيقول تعالى : " وأقم الصلاة لذكري " [٢].

وتارة مقرونة بالزكاة ، فيقول تعالى : " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة.."[٣]

وتارة مقرونة بالنسك ، فيقول تعالى : " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين "[٤]

وهذه الصلاة من الله بمكان ، حيث لا تسقط عن أحد من المسلمين ، ولو كان المسلم في ساحة القتال ، فهناك صلاة تسمى بصلاة الخوف ، وهي الصلاة التي يصليها المسلمون أثناء حربهم عدوهم ، ولو كانت تسقط عن أحد المسلمين ؛ لكان المجاهدون في سبيل الله تعالى أولى بهذه الرخصة .

وقد افترضها الله تعالى على المسلم البالغ العاقل ، فهي فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، بيد أن الله تعالى قد خفف منها للمسافر ؛ رخصة منه سبحانه وتعالى وتخفيفا ، كما كلف بها عباده في حدود طاقاتهم مراعاة لظروفهم ، فمن لم يستطع أن يصليها قائما ، فله أن يصلي قاعدا ، ومن لم يستطع أداءها جالسا أداها مضطجعا على جنبه ، ومن لم يستطع أن يتوجه إلى القبلة ، صلاها كما تيسر له ، ومن لم يستطع أن يتوضأ لها ، صلاها بالتيمم ، فلله الحمد والمنة فاطر السموات والأرض اللطيف بعباده .

أما الزكاة ، فهي ركن كذلك من أركان الدين ، ولكنها لا تجب إلا على القادر ، وهو الذي بلغ ماله النصاب ، فلا يؤديها فقير ؛ لأنها تخرج من الأغنياء إلى

---

(١) البقرة ٨٥ .

(٢) طه ١٤ .

(٣) البقرة ٤٣ .

(٤) الأنعام ١٦٢ .

الفقراء ؛ لإحداث التوازن بين طبقات المجتمع المسلم ، يقول تعالى : " .. كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم .. " [١] أي حتى لا يكون المال حكرا على الأغنياء فيتداول بينهم فقط ، بل يجب أن يأخذ منه الفقير وكل مستحق حقه ، كما أنها طهرة للمال من أن يختلط به الحرام إن لم يخرجها ، كما أنها طهرة للنفس من الشح يقول تعالى : " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .. " [٢] ، فالمال في الأصل مال الله ، والمسلم الغني مؤتمن عليه ، فإن بلغ نصابه وحال عليه حوله ؛ وجب إخراج زكاته ، والنصاب خمسة وثمانون جراما من الذهب الخالص عيار ٢٤ ، والمقصود بالحول السنة الهجرية الكاملة ؛ فإن توافر ذلك ؛ وجب على المسلم إخراج زكاة ماله ، وإلا وقع تحت عقاب الله تعالى ؛ فإن الله تعالى يقول : " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون .. " [٣] .

وينبغي أن تخرج هذه الزكاة لمستحقيها المذكورين في قوله تعالى: " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم " [٤] .

ولو أخرج الأغنياء زكاة مالهم للفقراء والمستحقين ؛ ما وجدنا بيننا شقيا ولا محروما .

ورغم أن الزكاة فريضة معتبرة في الشرع وأن من أنكرها فهو كافر بإجماع العلماء ، إلا أن مقدارها بسيط جدا ، فلا يخرج الغني من ماله بعد توافر الشروط إلا اثنين ونصف بالمائة من ماله ، وترك له سبعة وتسعين ونصف بالمائة ، فإن أخرج من ماله ما هو أكثر من هذه النسبة المطلوبة فهو من باب التصدق والتزود بالخير .

---

(١) الحشر ٧ .

(٢) التوبة ١٠٣ .

(٣) التوبة ٣٤ : ٣٥ .

(٤) التوبة : ٦٠ .

وقوله تعالى : " ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى .. " ثم قوله بعد ذلك : " وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله .. " هو من باب النهي عن الشر أولا ثم الأمر بالخير من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ثانيا .
وقوله تعالى : " وأطعن الله ورسوله .. " هذا من باب عطف العام على الخاص .

قوله تعالى : " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " النصب في (أهل البيت) إما على النداء أو على المدح وفيه دليل على أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته ؛ لأن قوله (عنكم) أُريد به الرجال والنساء من آله بدلالة قوله تعالى : " ويطهركم تطهيرا " [١] .

وهذا نص في دخول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في أهل بيته ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما أيضا .
وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى صلاة الفجر يمر بباب فاطمة رضي الله عنها قائلا : الصلاة يا أهل البيت " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " . رواه الترمذي وقال حسن غريب [٢] .

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : إن هذه الآية نزلت في بيتي " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " قالت وأنا جالسة على باب البيت ، فقلت : يا رسول الله ألست من أهل البيت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم " قلت : وفي البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم .

---

(١) راجع تفسير النسفي ٣/٣٠٢ .

(٢) المستدرك على الصحيحين : أبو عبد الله الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله (٤٠٥هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١هـ / ١٩٩٠م – ط١ – كتاب معرفة الصحابة – ذكر مناقب فاطمة رضي الله عنها – ٣/١٧٢ .

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا رضي الله عنهم فألقى عليهم ثوبا ، فقال : " اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا " قالت : فدنوت منهم ، فقلت يا رسول الله : وأنا من أهل بيتك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم " تنحي فإنك على خير " [(١)] ، والسياق يقتضي أن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشمل أزواجه صلى الله عليه وسلم للآية كما يشمل أهل بيته عليا وفاطمة وحسنا وحسينا للأحاديث الواردة في ذلك .

ولما كان الخطاب في الآية موجها لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم عقب بقوله تعالى : " واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة " أي : اعملن بما نزل من عند الله تعالى والتزمن بما في كتاب الله تعالى وهو القرآن الكريم لما يحويه من أحكام وآداب سامية وبما اشتملته السنة من أحكام أيضا ؛ لأن كلا من عند الله تعالى ، فالقرآن بوحي من الله ، كما أن السنة بوحي من الله ، وإن كان هناك فرق بين الكتاب والسنة من وجوه وهي :

١- القرآن الكريم كتاب الله الذي يتعبد بتلاوته بخلاف السنة ، فإنه لا يتعبد بتلاوتها؛ لأن قراءة القرآن ثوابها أعظم من ثواب قراءة السنة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " ولا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف"[(٢)] .

٢- القرآن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الباقية إلى قيام الساعة ؛ ولذا تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه ، بقوله تعالى : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[(٣)] ، بينما السنة قد يدخلها بعض ما ليس منها ؛ ولذا نجد منها الصحيح والحسن

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٧/٣ وما بعدها .

(٢) سنن الترمذي : باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ١٧٥/٥ .

(٣) الحجر : ٩ .

والضعيف والموضوع ؛ لما يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "[١].

٣- القرآن الكريم لا يمسه إلا المطهرون عند الأئمة الأربعة ، فلايجوز مسه إلا إذا كان المسلم على طهارة من الحدثين جميعا ، بينما ذهب ابن حزم إلى جواز مسه من المسلم وإن لم يكن طاهرا ، وحجة الجمهور قوله تعالى : " لا يمسه إلا المطهرون "[٢] ، وحجة ابن حزم قوله صلى الله عليه وسلم : " إن المؤمن لا ينجس "[٣] وفسر قوله تعالى " لا يمسه إلا المطهرون " بأن الضمير في كلمة (يمسه) يعود على اللوح المحفوظ ، والمطهرون الملائكة ، أما السنة فيجوز للجنب والمحدث قراءتها والاطلاع عليها ، وهذا يبين قدسية كتاب الله تعالى وفضيلته وتقدمه على السنة .

٤- القرآن الكريم بلفظه ومعناه من عند الله تعالى ، بينما السنة لفظها من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى من عند الله تعالى ، وإن كان القرآن والسنة بوحي من الله سبحانه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى .

٥- القرآن الكريم مقدم على السنة من حيث تصدره للمصادر التشريعية ، فمصادر التشريع يتصدرها كتاب الله تعالى ، ثم السنة التي هي المذكرة التفسيرية التوضيحية لكتاب الله تعالى ، ثم الإجماع ثم القياس ثم بقية المصادر أو الأدلة الأخرى كالمصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب والعرف ومذهب الصحابي وغير ذلك.

والمقصود بآيات الله التي تتلى في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ، والمقصود بالحكمة سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهذه نعمة من الله ومنة

---

(١) مجمع الزوائد : باب فيمن نوى أن لا يقضي دينه ١٣١/٤ .

(٢) الواقعة ٧٩ .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الحيض – باب الدليل على أن المسلم لا ينجس ٢٨٢/١ .

منه سبحانه على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهن خصصن بتلك النعمة وذلك الخير دون الناس جميعا ؛ لأن نزول الوحي في بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيه الرحمة لهن ، وعائشة رضي الله عنها الصديقة ابنة الصديق أبي بكر رضي الله عنه أولى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه النعمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ؛ فإنه لم ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في فراش امرأة سواها ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه صلى الله عليه وسلم فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية (١) .

وقوله تعالى : " إن الله كان لطيفا خبيرا " أي بلطفه بكم – يا نساء النبي – بلغتن هذه المكانة الرفيعة ، وهذه الدرجة العالية ، والمنزلة العظيمة ، وإنكن أهل لهذا العطاء الإلهي ؛ ولذا خصصكن به ، فيجب عليكن أن تشكرن الله تعالى وتحمدنه على ما حباكن به من منزلة ، وهو سبحانه خبير بكن ؛ إذ اختاركن لرسوله صلى الله عليه وسلم أزواجا ، وامتن عليكن بهذه النعمة العظيمة ، فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم .

مساواة الذكور والإناث في العبادة والثواب

قوله تعالى : " إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما " .

الإعراب :

إن : حرف توكيد ونصب مبني على الفتح لا محل له من الإعراب .

المسلمين : اسم إن منصوب ، وعلامة نصبه الياء ؛ لأنه جمع مذكر سالم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٧ .

والمسلمات : اسم معطوف منصوب ، وعلامه نصبه الكسرة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم.

أعد : فعل ماض مبني على الفتح .

الله : لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة .

لهم : اللام حرف جر ، وهم ضمير مبني في محل جر .

مغفرة : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

وأجرا : معطوف منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

عظيما : صفة منصوبة ، وعلامة النصب الفتحة ؛ لأنه مفرد والجملة الفعلية (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) في محل رفع خبر إن .

فروجهم : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه جمع تكسير ، وفروج مضاف ، والهاء ضمير مبني على الضم في محل جر مضاف إليه والميم للجمع ، وعامله كلمة (والحافظين) اسم فاعل معرف بأل ، فيعمل عمل الفعل .

التفسير :

سبب النزول : روى النسائي وغيره أن أم سلمة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم يا نبي الله مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن ؟ فأنزل الله تعالى : " إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات .... " الآية [(١)] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم ماله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله تعالى : " إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات " .. الآية .

---

(١) السنن الكبرى : أبو عبد الرحمن النسائي أحمد بن شعيب (٣٠٣هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١هـ / ١٩٩١م – ط١ – كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأحزاب – ٤٣١/٦ .

منه سبحانه على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهن خصصن بتلك النعمة وذلك الخير دون الناس جميعا ؛ لأن نزول الوحي في بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيه الرحمة لهن ، وعائشة رضي الله عنها الصديقة ابنة الصديق أبي بكر رضي الله عنه أولى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه النعمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ؛ فإنه لم ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في فراش امرأة سواها ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه صلى الله عليه وسلم فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية [١] .

وقوله تعالى : " إن الله كان لطيفا خبيرا " أي بلطفه بكم – يا نساء النبي – بلغتن هذه المكانة الرفيعة ، وهذه الدرجة العالية ، والمنزلة العظيمة ، وإنكن أهل لهذا العطاء الإلهي ؛ ولذا خصصكن به ، فيجب عليكن أن تشكرن الله تعالى وتحمدنه على ما حباكن به من منزلة ، وهو سبحانه خبير بكن ؛ إذ اختاركن لرسوله صلى الله عليه وسلم أزواجا ، وامتن عليكن بهذه النعمة العظيمة ، فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم .

مساواة الذكور والإناث في العبادة والثواب

قوله تعالى : " إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما " .

الإعراب :

إن : حرف توكيد ونصب مبني على الفتح لا محل له من الإعراب .

المسلمين : اسم إن منصوب ، وعلامة نصبه الياء ؛ لأنه جمع مذكر سالم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٧ .

والمسلمات : اسم معطوف منصوب ، وعلامه نصبه الكسرة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم.

أعد : فعل ماض مبني على الفتح .

الله : لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة .

لهم : اللام حرف جر ، وهم ضمير مبني في محل جر .

مغفرة : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

وأجرا : معطوف منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

عظيما : صفة منصوبة ، وعلامة النصب الفتحة ؛ لأنه مفرد والجملة الفعلية (**أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما**) في محل رفع خبر إن .

فروجهم : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه جمع تكسير ، وفروج مضاف ، والهاء ضمير مبني على الضم في محل جر مضاف إليه والميم للجمع ، وعامله كلمة (والحافظين) اسم فاعل معرف بأل ، فيعمل عمل الفعل .

التفسير :

سبب النزول : روى النسائي وغيره أن أم سلمة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم يا نبي الله مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن ؟ فأنزل الله تعالى : " إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات .... " الآية [١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم ماله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله تعالى : " إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات " .. الآية .

---

(١) السنن الكبرى : أبو عبد الرحمن النسائي أحمد بن شعيب (٣٠٣هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١هـ / ١٩٩١م – ط١ – كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأحزاب – ٤٣١/٦ .

والكذب الذي يجوز لا يكون إلا في حالات ثلاث : الأولى : للصلح بين الناس ، والثانية : الكذب على الزوجة حين يمتدحها بأنها جميلة وهي خلاف ذلك ، والثالثة : الكذب على العدو في المعركة ، وهي الخداع ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الحرب خدعة " (١) .

والصادق كذلك هو من يفي بما عوهد عليه ، فلاينقض عهدا ولا يترك إيفاء وعد ، بل هو يجاهد نفسه حتى يفي بكل عهد ووعد ، والله عز وجل أمرنا أن نفي بالعقد ، يقول تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " (٢) .

وقوله تعالى : " والصابرين والصابرات " أي من يصبر على مداومة الطاعة ، ويصبر عن الوقوع في المعصية ، ويصبر على ما أصابه بتقدير الله تعالى .

فالصبر ثلاثة أقسام : الأول الصبر على الطاعة ، فالصلاة وإقامتها في وقتها بأركانها وشروطها وواجباتها تحتاج إلى الصبر ، وكذا الصيام وإخراج الزكاة بمقدارها في وقتها ، وكذا أداء الحج مع ما فيه من مشاق ، كل ذلك يفتقر إلى صبر ، الثاني : الصبر عن المعصية ، فالمؤمن يصبر عن الوقوع في الفواحش والمنكرات ، ويمنع نفسه من اقتراف الذنوب والخطايا ؛ مرضاة لرب العالمين وخشية من عذابه ؛ لأنه مؤمن بأنه سيحاسب على ما قدم ، ولذا نجده مراقبا لله رب العالمين في كل حركاته وسكناته . الثالث : الصبر على الابتلاء ، وهو ما يصاب به الإنسان بقضاء الله تبارك وتعالى في ماله أو ولده أو بدنه من ابتلاء ، فيصبر المؤمن على كل ذلك ، ويحتسب أجره على الله سبحانه ، يقول الله تعالى مبينا أجر الصابر : " إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" (٣) ، ويقول سبحانه : "ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير – باب جواز الخداع في الحرب ١٣٦١/١ .

(٢) المائدة : ١ .

(٣) الزمر ١٠ .

الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعــون أولئــك علــيهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون " [١] .

فالمؤمن مستسلم لأمر الله ، راض بما قدره الله تعالى فيه وفيمن حوله مــن أحبائه وأهله ، وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم " عجبا لأمر المؤمن ، فإن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له " [٢] .

وقوله تعالى : " والخاشعين والخاشــعات " همــا المتواضــعان لله ســبحانه الخائفان منه الخاضعان في عبادتهما لله رب العالمين [٣] .

وقوله تعالى : " والمتصدقين والمتصدقات " أي المتصدق من الرجال والنساء الذي يخرج من ماله ما أوجبه الله عز وجل فيه من زكاة ، وقيل : ذلك أعــم مــن صدقة الفرض والنفل ، وثواب المتصدق في سبيل الله ، المخلص في هــذا العمــل يضاعف أضعافا كثيرة ، يقول الله عز وجل: " مثل الذين ينفقون أموالهم في ســبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون قول معروف ومغفرة خير مــن صدقة يتبعها أذى والله غني حليم يا أيها الذين آمنوا لا تبطلــوا صــدقاتكم بــالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخــر ، فمثلــه كمثــل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم

---

(١) البقرة : ١٥٥ : ١٥٧ .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الزهد والرقائق – باب المؤمن أمره كله خير ٢٢٩٥/٤ .

(٣) راجع فتح القدير للشوكاني ٢٨٢/٤ .

كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير"(١) .

فالآيات الكريمة تشير إلى عظم أجر المتصدق المخلص في صدقته ، الذي لا يرائي الناس ، بل هو يطلب الرضى والعفو من ربه سبحانه وتعالى ، كما تشير الآيات إلى بطلان صدقة من تصدق وأتبع صدقته بالإيذاء قولا أو فعلا لمن أحسن إليه ، والتفاخر كذلك يبطل الصدقة ويحبط أجرها والعياذ بالله تعالى من ذلك .

وقوله تعالى : " والصائمين والصائمات " ، وهم الذين يؤدون صيام الفريضة وهو صيام شهر رمضان المعظم الذي نزل فيه القرآن فيه الهدى والرشاد والخير للأمة بأسرها ، وقيل : الآية أعم ، فهي تشمل صيام الفرض وصيام النفل ، والصيام ليس مجرد الامتناع عن الحلال من طعام وشراب ومعاشرة زوجة في وقت مخصوص فحسب ، بل ينبغي على المسلم أن تصوم معه جميع جوارحه مع صيام القلب .

وصيام الجوارح يعني أن تصوم العين ، فلا تنظر إلى محرم ، وكذا اللسان يصوم ، فلا يخوض فى أعراض الناس ويشتم ويسب ويغتاب ، ويوقع العداوة بين الناس ، بل يكون ذاكرا لله رب العالمين بتلاوة القرآن ، وقراءة العلم المفيد والقول بالحسنى للناس جميعا ، ويصوم السمع كذلك عن سماع ما هو محرم ، واليد تصوم فلا تمتد إلى محرم كالرشوة والسرقة واغتصاب أموال الناس بالباطل ، والرجل تصوم ، فلا تمشي إلا فيما يرضي الله سبحانه وتعالى ، والقلب يصوم فلا يصرف عن ذكر الله تعالى والتفكر في آلاء الله سبحانه . هكذا يكون صيام الخاصة ، الصيام الحقيقي ، فندعو الله سبحانه أن يجعلنا ممن يصومونه ابتغاء مرضاته سبحانه .

وقوله تعالى : " والحافظين فروجهم والحافظات " أي عن الحرام بالتعفف والتنزه عما لا يليق بالمسلم إلا على الأزواج ، فإن الله تعالى أباح للرجل الاستمتاع

---

(١) البقرة : ٢٦١ : ٢٦٥ .

بزوجته وملك يمينه بقوله سبحانه " والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون "(١).

فيجب على الرجل وكذا المرأة الاقتصار على الحلال الذي أحله الله عز وجل لكل منهما ، ولا يتجاوز أحدهما الحد ، فتكون النتيجة أن يغضب الله عليه والعياذ بالله ، ومن غضب الله عليه أدخله النار .

وحفظ الفرج يكون باجتناب مقدمات الزنى ، كاجتناب النظر بشهوة إلى أجنبية ، يقول تعالى : " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمورهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " (٢) .

وحفظ الفرج يكون كذلك بعدم إظهار الزينة من المرأة أمام الرجال إلا فيمن نصت عليهم الآية الكريمة من المحارم وغير أولي الرغبة في النساء والأطفال ، فلا بأس أن تظهر المرأة أمامهم بعض الزينة (الزينة الظاهرة) أما الزوج فله أن تتزين له كل الزينة : ظاهرة وباطنة .

ويكون حفظ الفروج أيضا بعدم الخلوة بين الرجل والمرأة ؛ لأنها تؤدي إلى الوقوع في الفاحشة ، يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : " ... ولا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما " (٣) .

---

(١) المؤمنون : ٥ : ٧ .

(٢) النور : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) مسند الشافعي : أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – د/ت – ٢٤٤/١ .

وهكذا ينبغي على المسلم أن ينأى بنفسه عن كل ما يقربه من الوقـوع فـي الفاحشة ، وأن يحفظ فرجه عن ذلك .

وقوله تعالى : " والذاكرين لله كثيرا والذاكرات " والذاكر والذاكرة هما مـن يذكر الله تعالى في كل أحواله ، وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار مـن ذكر الله سبحانه وتعالى بالقلب واللسان [١] .

ويكفي المسلم ذكرا لله تعالى أن يحافظ على الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صباحا ومساء ، وأن يقيم فرائض الله تعالى المطلوبة منه على أتم وجه ؛ فإن فعل ذلك كان من الذاكرين لله تعالى .

وذكر الله تعالى على كل حال ، يقول تعالى : " الـذين يـذكرون الله قيامـا وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا مـا خلقـت هـذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار " [٢] .

وقوله تعالى : " أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما " أي أن من كانـت تلـك أوصافهم ، وهذه أحوالهم من إسلام ، وإيمـان ، وقنـوت ، وصـدق ، وصـبر ، وخشوع لله تعالى ، وتصدق في سبيل الله ، وصوم حقيقي لله سبحانه ، وحفظ للفرج ، وذكر لله ، كانت عاقبتهم محمودة ، وذلك بأن الله تعالى يغفر لهم ذنـوبهم ويكفـر عنهم سيئاتهم ، ويعظم لهم الأجر والثواب على هذه الطاعات .

ووصف الله تعالى لهذا الأجر بأنه عظيم فيه دلالة على أنه بالغ غاية المبالغة ، ولا شئ أعظم من أجر هو الجنة ونعيمها الدائم ، الذي لا ينقطـع ولا ينفـذ ؛ لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ وهو من إعداد الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فإن أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ؛ لأن ما يأكلونه هو من صنع الله تعالى ، فيكون إخراجه على هيئة رشح على أجسامهم ، وهذا الرشـح طيب ؛ لأنه أعظم من رائحة المسك ، فاللهم عافنا من النار ومن كل ما قرب منهـا وارزقنا الجنة وكل ما يقرب إليها من قول أو عمل .

---

(١) راجع فتح القدير ٤/٢٨٢ .
(٢) آل عمران ١٩١ .

الإذعان لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى :

" وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا " .

الإعراب :

الله : لفظ الجلالة فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة .

ورسوله : الواو حرف عطف ، رسول : اسم معطوف مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد ، ورسول مضاف والهاء : ضمير مبني على الضم في محل جر مضاف إليه .

أمرا : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

أن : أداة نصب للفعل المضارع .

يكون : فعل مضارع منصوب بأن ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة ، وهو فعل ناقص ناسخ .

لهم : اللام حرف جر ، هم : ضمير مبني في محل جر بعد حرف الجر ، وشبه الجملة (لهم) في محل نصب خبر يكون مقدم .

الخيرة : اسم يكون مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد .

يعص : فعل مضارع (فعل الشرط) مجزوم ، وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) .

فقد : الفاء واقعة في جواب الشرط ، وقد : حرف تحقيق مبني على السكون لا محل له من الإعراب .

ضل : فعل ماض مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) .

ضلالا : مفعول مطلق مبين للنوع منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

مبينا : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد ، والجملة (فقد ضل ضلالا مبينا) جواب الشرط .

سبب النزول :

ذكر القرطبي في تفسيره أن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش ، وكانت ابنة عمته صلى الله عليه وسلم فظنت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبين لها أنه يريدها لزيد ؛ كرهت وأبت وامتنعت ، فنزلت الآية ، وهذا ما رواه قتادة ومجاهد وابن عباس (١) .

ولما نزلت الآية ؛ أذعنت زينب حينئذ وتزوجته ، وفي رواية أنها امتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبدا ، فلما نزلت الآية ؛ قال أخوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : مرني بما شئت ، فزوجها من زيد .

وقيل : نزلت هذه الآية في أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت قد وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فزوجها من زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك هي وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا غيره ؛ فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجاب إلى تزويج زيد ، وهذا ما ذهب إليه ابن زيد .

والمعنى أنه ما ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أمرا أن يختار من أمر نفسه ما شاء ، بل يجب عليه أن يذعن لقضاء الله سبحانه ، وأن يوقف نفسه تحت هذا القضاء .

ولفظ (ما كان) يعني الحظر والمنع شرعا أو عقلا ، فالشرع بما أمر الله تعالى به أو نهى عنه ، والعقل كقوله تعالى : " ما كان لكم أن تنبتوا شجرها " (٢)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/١٩٦ .

(٢) النمل ٦٠ .

فهنا إنبات الشجر ممتنع عقلا ؛ لأنه لا يكون إلا إذا شاء الله تعالى ، وربما كان العلم بامتناعه شرعا ؛ كقوله تعالى : " ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس ... "[١] ، وقوله تعالى : " وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ... "[٢] وربما كان ذلك في المندوبات ، فتقول مثلا : ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل ، ونحو هذا [٣] .

قال القرطبي : وفي الآية دليل بل نص في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب ، وإنما تعتبر في الأديان ، خلافا لمالك والشافعي والمغيرة وسحنون ، فقد تزوج زيد بزينب بنت جحش ، وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير ، وزوج أبو حذيفة سالما من فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف .

أما القراءات فقد قرأ الكوفيون " أن يكون " بالياء ، وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله ، وقرأ الباقون بالتاء ؛ لأن اللفظ مؤنث ، فتأنيث فعله حسن ، والتذكير على أن الخيرة بمعنى التخيير ، فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار [٤] .

وقرأ ابن السميفع " الخيرة " بسكون التحتية ، بينما قرأ الباقون بتحريكها ، ثم توعد الله تعالى من يعصي أمره أو أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يذعن لقضاء الله وقدره ، فهو إن فعل ذلك العصيان ؛ فقد حاد عن الطريق القويم ، وسلك طريق الضلال والزيغ والعياذ بالله[٥] .

---

(١) آل عمران ٧٩ .

(٢) الشورى ٥١ .

(٣) راجع الجامع لأحكام القرآن ١٩٧/١٤ وما بعدها .

(٤) راجع تفسير القرطبي ١٩٧/١٤ وما بعدها.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٢٨٣/٤ .

تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب فيه حكمة تشريعية

قوله تعالى

: " وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتـق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضـى زيـد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حـرج فـى أزواج أدعيـائهم إذا قضوا منهنّ وطرا وكان أمر الله مفعولا ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا الذين يبلغون رسـالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ما كان محمد أبا أحـد مـن رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما "

الإعراب :

للذي : اللام حرف جر ، الذي اسم موصول مبني على السكون في محل جر بعـد حرف الجر .

أمسك : فعل أمر مبني على السكون ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره (أنت) .

زوجك : زوج مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنـه مفـرد ، وزوج مضاف والكاف ضمير مبني على الفتح في محل جر مضاف إليـه والجملـة الفعلية (أمسك عليك زوجك) في محل نصب مفعول به مقول القول .

اتق : فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقـديره أنت .

الله : لفظ الجلالة مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة .

ما الله : ما : اسم موصول بمعنى الذي مبني على السكون في محل نصب مفعول به ، الله : لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة .

مبديه : مبدي خبر المبتدأ مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة المقدرة ، ومبدي مضاف ، والهاء ضمير مبني على الكسر في محل جر مضاف إليه ، والجملة الاسمية (الله مبديه) لا محل لها من الإعراب صلة الموصول .

زوجناكها : زوجنا : فعل ماض مبني على السكون ؛ لاتصاله بنا الفاعلين ، والكاف ضمير مبني على الفتح في محل نصب مفعول به أول ، والها ضمير مبني على السكون في محل نصب مفعول به ثان .

حرج : اسم يكون مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد ، وشبه الجملة قبلها (على المؤمنين) خبر يكون مقدم في محل نصب .

رسالات : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الكسرة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم .

يخشون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه ثبوت النون ؛ لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل .

وكفى : كفى فعل ماض مبني على الفتح المقدر .

بالله : الباء حرف جر زائد ، الله : لفظ الجلالة مجرور لفظا على أنه اسم مجرور ، مرفوع محلا على أنه فاعل للفعل كفى .

حسيبا : تمييز منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة .

أبا : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الألف ؛ لأنه من الأسماء الستة.

أحد : أبا مضاف وأحد مضاف إليه مجرور ، وعلامة جره الكسرة ؛ لأنه مفرد .

عليما : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

سبب النزول :

كان زيد بن حارثة رضي الله عنه من الرقيق الذين استرقوا ، رغم أنه كان حرا ، إلا أنه كما قيل : خطف من قومه ، وبيع كالرقيق ، فلما كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرمه فأعتقه ، فأصبح حرا مرة أخرى وقد رآه رهط من قومه

في مكة ، فلما سمع أهله بذلك ، جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستردوه منه ، فخيره رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين قومه (أي خيره أن يكون في معية رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن يذهب مع قومه) فاختار زيد رضي الله عنه جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم على جوار قومه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ذلك ادّعاه لنفسه ، فمنذ ذلك الحين وهو يطلق عليه زيد بن محمد ، فلما تزوج زيد بزينب بنت جحش بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تدم الحياة الزوجية بين زيد وزينب رضي الله عنهما ، فقد كان زيد يشكو كثيرا منها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمره بتقوى الله والصبر على معاشرة زوجته زينب ، رغم أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أنه سيتزوج زينب بأمر من الله تبارك وتعالى لتشريع حكم جديد ، وهو نفي ادّعاء الرجل لغير أبيه وتحريم البنوة لغير الصلب ، فلما طلقها زيد ، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من الله تعالى ؛ قال المنافقون : إن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه ؛ فنزل قوله تعالى : " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما " [١] .

التفسير

قوله تعالى : " وإذ تقول للذي أنعم الله عليه " أي زيد ، وقد أنعم الله تعالى عليه بالإسلام ، " وأنعمت عليه " أي بالعتق فأعتقته .

قال الحسن وعائشة رضي الله عنهما : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي ؛ لكتم هذه الآية لشدتها عليه .

وقال عمر وابن مسعود والحسن وعائشة رضي الله عنهم : ما أنزل الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم آية أشد عليه من هذه الآية .

---

(١) راجع القرطبي ١٨٧/١٤ وما بعدها .

وجاء زيد رضي الله عنه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل كذا وكذا ، وإني أريد أن أطلقها ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : " أمسك عليك زوجك واتق الله " الآية ، فطلقها زيد فنزلت الآية : " وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه " .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد : " ما أجد في نفسي أوثق منك فاخطب زينب عليَّ " فذهب زيد إليها ، فلما رآها ولاها ظهره تعظيما وتوقيرا للرسول صلى الله عليه وسلم ، فما نظر إليها ، فقال : يا زينب أرسلني إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، ففرحت فرحا شديدا ، وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بعد أن أطعم الخبز واللحم ، وفي هذا امتحان لزيد واختبار له ؛ حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه .

قوله تعالى : " أمسك عليك زوجك " أي زينب بنت جحش رضي الله عنها " واتق الله " في أمرها ولا تتعجل في طلاقها ، " وتخفي في نفسك ما الله مبديه " وهو نكاحها بعد تطليق زيد لها بأمر من الله ، " وتخشى الناس " أي تستحييهم ، او تخاف من تعييرهم لك ؛ بأن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوجها ، " والله أحق أن تخشاه " في كل حال وتخاف منه وتستحييه ، والواو للحال ، أي تخفي في نفسك ذلك الأمر مخافة الناس ، رغم أنه أمر تشريعي من الله تبارك وتعالى [١] .

يقول القرطبي رحمه الله وقد يستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه: اخطب عليّ فلانة لزوجته المطلقة منه ، ولا حرج في ذلك .

أقول وبالله التوفيق : إن هذا أمر يصبر عليه أولو العزيمة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كزيد بن حارثة رضي الله عنه وأمثالهم من المتقين ، فليس هذا مما يطاق في زماننا ، فهو أمر مستغرب وعجيب أن يقول الرجل منا للمطلق : اخطب على مطلقتك ، أما الأمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيختلف تماما ، فهو الرسول المجتبى الذي يحبه المؤمن أكثر من حبه نفسه ، ولذلك ما من عجب في أن يكون السفير

---

(١) فتح القدير ٢٨٤/٤ .

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين زينب بنت جحش زيداً رضي الله عنه الذي أكرمه الرسول صلى الله عليه وسلم بعتقه ، ونسبه إلى نفسه صلى الله عليه وسلم ، والذي أكرمه الله عز وجل بتخليد اسمه قديما وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وذكره في القرآن ، فيتعبد بتلاوة اسمه إلى قيام الساعة ، وكذلك يتلوه أهل الجنة أبدا ، وكونه رضي الله عنه ذكر في القرآن هذا يعني أنه مذكور في اللوح المحفوظ منذ القدم ؛ لأن كلام الله تبارك وتعالى كلام قديم ، فمثل زيد يتحمل أن يكون السفير بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مطلقته زينب بنت جحش ، حتى وإن كان زيد قد سبق له الزواج منها ، والله تعالى أعلى وأعلم .

قوله تعالى : " فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها " قال ابن عباس : أي بلغ ما أراد من حاجته ، يعني الجماع ، والجمع أوطار ، وهو كل حاجة للمرء له فيها همة ، وقال قتادة : الوطر عبارة عن الطلاق [١] .

وقوله تعالى : " زوجناكها " فيه دليل على ثبوت الولي في عقد النكاح ، وقد ذهب الجمهور من الفقهاء إلى وجوب الولاية في النكاح ، واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم " لا نكاح إلا بولي " [٢] ، وكذا استدلوا بآيات كثيرة تدل على ثبوت الولاية في عقد النكاح ، منها قوله تعالى: " .. ولا تُنْكِحُوا المشركين حتى يؤمنوا " [٣] ، وقوله تعالى : " فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف .. " [٤] .

وقال الجمهور : لو أنكحت المرأة نفسها بنفسها ؛ بطل عقد النكاح ، وممن ذهب إلى هذا القول المالكية والشافعية والحنابلة والزيدية وغيرهم ، وقال الإمام أبو حنيفة : يجوز للمرأة تزويج نفسها ، ولكنهم وضعوا لذلك شروطا ، وهي : أن تكون بالغة عاقلة رشيدة ؛ لأن لها أن تتصرف في مالها كيفما تشاء ، فلها كذلك أن تزوج نفسها بنفسها ،

---

(١) راجع تفسير القرطبي لأحكام القرآن ١٨٧/١٤ وما بعدها .

(٢) سنن الترمذي : كتاب النكاح – باب ما جاء لا نكاح إلا بولي – ٤٠٧/٣ ، وقال حديث عائشة عندي حسن .

(٣) البقرة : ٢٢١ .

(٤) البقرة : ٢٣٢ .

وأن يكون الزوج كفئا لها ، فإن كان غير كفء لها ؛ فلأوليائها حق فسخ العقد ، وأن يكون بمهر المثل ، فإن كان بغير ذلك ؛ كان للأولياء حق الاعتراض على النكاح ، وحق فسخ العقد أيضا .

وحجة أبي حنيفة رحمه الله قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث " الثيب أحق بنفسها من وليها " ، وأقول : وليس لهم فيه حجة ؛ لأن معنى الحديث اعتبار رضاها صراحة ؛ لأنها مجربة والله تعالى أعلى وأعلم [١] .

وقوله تعالى : " زوجناكها " دليل على أن هذا النكاح لم يكن بولي ولا عقد ولا تقدير صداق ، ولا شئ مما هو معتبر في عقد النكاح ؛ لأن المزوج هو الله تبارك وتعالى ؛ ولذلك دخل النبي صلى الله عليه وسلم بها دون إذن ولا شئ من هذه الشروط المعتبرة في عقد النكاح ، وهذه من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين ؛ ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقول: زوجكن آباؤكن وزوجني الله تعالى .

ومما يذكر في ذلك أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول مفاخرة بزواجها من النبي صلى الله عليه وسلم : أنا التي جاء بي الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سرقة من حرير ، فيقول : " هذه امرأتك " وقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي زوجني الله من فوق سبع سموات.

وكانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن : أما الأولى فإن جدي وجدك واحد ، وأما الثانية فإن الله تبارك وتعالى أنكحك إياي من السماء ، وأما الثالثة فإن السفير في ذلك هو جبريل عليه السلام [٢] .

وقد علل الله عز وجل تزويجه النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بقوله سبحانه " لكيلا يكون على المؤمنين حرج " أي ضيق ومشقة " في أزواج أدعيائهم "

---

(١) راجع المسألة في رسالة الدكتوراه للمؤلف في الباب الأول ص٤١ وما بعدها.

(٢) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨٧/١٤ وما بعدها .

أي في التزوج بأزواج الأدعياء ، كما كانت تفعله العـرب ، فكـانوا يتبنـون مـن يريدون ويعتقدون أنه يحرم عليهم الزواج بزوجة من تبنوه ، كما تحرم عليهم أزواج أبنائهم من أصلابهم ، فأخبرهم الله تبارك وتعالى أن ذلك حلال لهم ، ولا حرج ولا إثم فيه ؛ لأنهم ليسوا من أصلابهم ، وهنا يشرع المولى عز وجل حكما جديدا فـي نفي النسب إلى المدعى إليه بقوله تعالى : " ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله .. " .

وقوله تعالى : " إذا قضوا منهن وطرا " أي حتى وإن دخل بها الدَّعى المتبنى ، فإنه يجوز للرجل الذي تبناه أن يتزوج بامرأته ؛ لأنه ليس من صلبه في الحقيقة ، فإن ولد الصلب تحرم امرأته على أبيه بمجرد العقد عليها [١] .

" وكان أمر الله مفعولا " أي كان قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره سبحانه قضاء ماضيا مفعولا لا محالة .

قوله تعالى : " ما كان على النبي من حرج فيما فُرض الله سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا " .

بيّن الله تعالى في هذه الآية أنه لم يكن على رسول الله صلى الله عليه وسـلم من حرج في نكاحه بزينب ؛ لأنه سبحانه هو الذي أحل له ذلك وقـدره وقضـاه ، وهذه هي سنة الله تبارك وتعالى في أنبيائه والأمم الماضية أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره .

وانتصاب " سنة " على المصدر أي سَنَّ الله سنة الله تعالى ، أو اسم وضـع موضع المصدر ، أو منصوب بجعل أو بالإغراء .

وقوله تعالى : " الذين يبلغون رسالات الله " فيه ذكر للأنبياء السابقين ومـدح لهم بأنهم قاموا بتبليغ ما أرسلهم الله سبحانه وتعالى به ، كما مدحهم بصفة الخشـية منه سبحانه بقوله تعالى : " ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله " أي أنهم لا يبـالون

---

(١) راجع فتح القدير للشوكاني ٢٨٤/٤ وما بعدها .

بما يقع بهم من الناس ، قولا كان كالتعيير ، أو فعـلا كـان كالإيـذاء ، فخشـيتهم محصورة على الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : " وكفى بالله حسيبا " أي وكفى بالله ناصرا ومعينا يكفي عباده كل ما يخافونه ، أو محاسبا لهم في كل شئ .

وقوله تعالى : " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم " فيه نهي عن أن يقال بعد هذا " زيد بن محمد " أي لم يكن أباه ، وإن كان قد تبناه ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه قد ولد له صلى الله عليه وسلم من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها القاسم ، والطيب ، والطاهر ، وولد له صلى الله عليـه وسلم من مارية رضي الله عنها إبراهيم ، ومات صلى الله عليه وسلم وكان له مـن خديجة رضي الله عنها أربع بنات ، هن : رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن ، فمات في حياته منهن ثلاث بنات ، وتأخرت فاطمة رضي الله عنهـا حتـى أصيبت به صلى الله عليه وسلم ثم ماتت بعده بستة أشهر [(١)] .

وقوله سبحانه : " ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما " ، كقوله تعالى : " الله أعلم حيث يجعل رسالته .. " [(٢)] فهذه الآية تنص على أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم ، فلا رسـول بـالطريق الأولـى والأحرى ؛ لأن تمام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كـل رسـول نبـي ، ولا ينعكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " مثلي في النبيين كمثل رجل بني دارا فأحسـنها وأكملها ، وترك فيها موضع اللبنة لم يضعها ، فجعل النـاس يطوفـون بالبنيـان ، ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضـع تلـك اللبنة " [(٣)] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٩٣/٣ وما بعدها .

(٢) الأنعام ١٢٤ .

(٣) مسند أحمد : حديث الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه رضي الله عنهما ١٣٦/٥ .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي " ، قال : فشق ذلك على الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : " ولكن المبشرات " قالوا يا رسول الله : وما المبشرات ؟ قال : " رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوة " [١].

وقوله صلى الله عليه وسلم : " لا نبوة بعدي إلا المبشرات ، قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : " الرؤيا الصالحة " [٢].

وقوله صلى الله عليه وسلم : " فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون " [٣].

وقوله صلى الله عليه وسلم " إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي " [٤].

يقول ابن كثير في تفسيره : وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز وكذا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تحرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم ونجو ذلك ، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب ، كما أجرى الله سبحانه على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة ، والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما

---

(١) مسند أحمد ٣/٢٦٧ حديث رقم (١٣٨٥١) .

(٢) الأحاديث المختارة : أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي (٦٤٣هـ) – مكتبة النهضة الحديثة – مكة المكرمة – ١٤١٠هـ – ط١– ٨/٢٢٣ .

(٣) صحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/٣٧١ .

(٤) صحيح البخاري : كتاب المناقب – باب ما جاء في أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ٣/١٢٩٩ .

كاذبان ضالان لعنهما الله تعالى ، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ؛ وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الإتقان ، أو لما لهم فيه من مقاصد إلى غيره ، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال الله تعالى : " هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم " [١] ، وهذا بخلاف حال الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين فإنهم يتصفون بصفات الكمال التي يجب أن تكون لهم من بر وصدق وأمانة ورشد واستقامة وعدل فيما يقولون ، ويأمرون به ، وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله تعالى وتسليماته عليهم أجمعين [٢] .

وقوله تعالى : " وكان الله بكل شئ عليما " أي أحاط علمه بكل شئ ، ومن جملة هذا العلم ما ذكره الله تعالى في هذه السورة من أحكام .

فضل الذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى :

: " يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا " .

---

(١) الشعراء ٢٢١ : ٢٢٢ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٤٩٤/٣ وما بعدها .

الإعراب :

يا : أداة نداء .

أيُّ : منادى مبني على الضم في محل نصب ، وها للتنبيه .

الذين : اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع صفة .

آمنوا : فعل ماض مبني على الضم ، لاتصاله بواو الجماعة وهي فاعل ضمير مبني على السكون في محل رفع ، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب .

اذكروا : فعل أمر مبني على حذف النون ، واو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل .

الله : لفظ الجلالة مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة .

ذكرا : مفعول مطلق منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، والمفعول هنا مبين للنوع .

كثيرا : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة .

وملائكته : اسم معطوف على مرفوع ، وملائكة مضاف ، والهاء مضاف إليه ضمير مبني على الضم في محل جر .

ليخرجكم : فعل مضارع منصوب باللام ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، والكاف : ضمير مبني على الضم في محل نصب ، والميم للجمع .

رحيما : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

تحيتهم : مبتدأ مرفوع ، وعلامة الرفع الضمة ، وتحية مضاف وهم ضمير مبني في محل جر مضاف إليه .

يلقونه : يلقون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ؛ لأنه الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة فاعل ، والهاء ضمير مبني على الضم في محل نصب مفعول به .

سلام : خبر المبتدأ مرفوع ، وعلامة الرفع الضمة ؛ لأنه مفرد .

النبي : نعت مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد .

وكيلا : تمييز ملحوظ منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

التفسير :

قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا " قال مقاتل : بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال ، وقال مجاهد : هو أن لا ينسى المؤمن الله تعالى أبدا . وقال الكلبي : من صلى الصلوات الخمس فقد ذكر الله كثيرا

ففي الآية يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمن بأن يكون على اتصال به سبحانه وتعالى ، وهذا لا يأتي إلا بذكره سبحانه وتعالى على كل الأحوال وفي كل الأحيان وذكر الله تعالى يشمل الصلاة والصيام والزكاة والحج والشهادتين والمحافظة على الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا ونهارا .

وقوله تعالى : " وسبحوه بكرة وأصيلا " أي نزهوا الله عز وجل عما لا يليق في وقت البكرة ووقت الأصيل .

ووقت البكرة أول النهار ، ووقت الأصيل آخره ، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما ، وخص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله تعالى : " اذكروا الله " تنبيها على مزيد شرفه ، وإنافة ثوابه على غيره من الأذكار ، وقيل : المراد بالتسبيح بكرة صلاة الفجر ، وبالتسبيح أصيلا : صلاة المغرب ، وقال قتادة وابن جرير : المراد صلاة الغداة وصلاة العصر ، وقال الكلبي : أما بكرة فصلاة الفجر ، وأما أصيلا فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

والأصيل العشى ، وجمع الأصيل : الأصائل .

وقوله تعالى : " هو الذي يصلي عليكم وملائكته " فالصلاة من الله تبارك وتعالى تعني الرحمة والبركة ، ومن الملائكة تعني الاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم بالخير ، كما قال تبارك وتعالى : " الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد

ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فـاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم " [١] .

وقوله تعالى : " ليخرجكم من الظلمات إلى النور " أي يعتني بـأموركم هـو والملائكة ؛ ليخرجكم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات ، ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهدى ، ومعنى الآية تثبيت المؤمنين على الهداية ودوامهم عليهـا ؛ لأنهـم كانوا وقت الخطاب على الهداية .

ونلاحظ أن الله تبارك وتعالى عندما ذكر الظلمة ذكرها بصيغة الجمع ، بينما ذكر النور بصيغة الإفراد ، وهذا إن دل على شئ إنما يدل على أن طريـق الحـق واحد لا يتعدد ، وهو طريق الهداية والرشاد ، إذ لا زيغ فيه ولا لبس ولا غوايـة ، بينما طرق الباطل والضلال متعددة والله تعالى أعلى وأعلم .

وأخبر الله تعالى بعد ذلك برحمته ولطفه بالمؤمنين ، تأنيسا لهم وتثبيتا ، فقال سبحانه : " وكان بالمؤمنين رحيما " أي في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم ، وبصّـرهم الطريـق الذي ضل عنه أهل الضلال والكفر ، وأما في الآخرة فرحمته تعني شمولهم بالأمن من الفزع الأكبر ، وبأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة والفوزبالجنة والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبته سبحانه وتعالى لهم ورأفته بهم .

فقد روى البخاري في رحمة الله سبحانه بعباده حديثا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال صلى الله عليه وسـلم : "

---

(١) غافر ٧ : ٩ .

أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك ؟ قالوا : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها " (١) .

وقوله تعالى : " تحيتهم يوم يلقونه سلام " أي تحيتهم من الله يوم يلقونه سلام ، أي يوم يسلم عليهم ، كما قال سبحانه : " سلام قولا من رب رحيم " (٢) .

وقال قتادة : المراد أنهم يحيون بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون الله في الآخرة ، ومنه قول الله سبحانه : " دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " (٣) .

وقوله تعالى : " وأعد لهم أجرا كريما " يعني الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملذات والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٤) .

وقوله تعالى : " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا " فيه تعظيم للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا النداء ، فالله عز وجل يحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويكرمه بهذه النداءات التي فيها ذكره صلى الله عليه وسلم بالرسالة أو النبوة ، فيقول تعالى : " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك .. " (٥) ويقول سبحانه مناديا رسوله الكريم بقوله : " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .. " وفي موضع يقول سبحانه : " يا أيها المدثر قم فأنذر " (٦) ، وفي موضع آخر يقول

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الأدب – باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٢٢٣٥/٥ .

(٢) يس ٥٨ .

(٣) يونس ١٠ .

(٤) راجع تفسير ابن كثير ٤٩٧/٣ وما بعدها .

(٥) المائدة ٦٧ .

(٦) المدثر ١ ، ٢ .

سبحانه : " يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا . "[١] بينما ينادي على سائر الرسل بأسمائهم فيقول تعالى ذكره : " يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .. "[٢] ، ويقول سبحانه: " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق "[٣] ، ويقول تعالى : " يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى.. "[٤] ، ويقول تعالى : " قيل يا نوح اهبط بسلام منا .. "[٥] ، ويقول سبحانه : " يا يحيى خذ الكتاب بقوة .. "[٦] ، ويقول تعالى : " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ... "[٧] ولم يقل في آية من آياته الكريمة في كتابه الكريم : " يا محمد " قط ، وهذا إن دل على شئ إنما يدل على منزلة أشرف المرسلين صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه وتعالى وعظيم قدره ورفعة شأنه ، وأنه إمام المرسلين وسيد الخلق أجمعين .

فمن صفاته وسجاياه صلى الله عليه وسلم التي جبله الله سبحانه وتعالى عليها أنه صلى الله عليه وسلم ليس بفظ ولا غليظ ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ويتسامح ، ولم يقبض صلى الله عليه وسلم حتى أقام الله به الملة العوجاء بأن قال الناس : لا إله إلا الله ، ففتح الله به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، فقد كانت السكينة لباسه صلى الله عليه وسلم والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، وأُهدى به بعد الضلال ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأُكثر به بعد القلة ، وأُغنى به بعد العيلة ، وأُجمع

---

(١) المزمل ١ ، ٢ .

(٢) الصافات ١٠٥ .

(٣) ص ٢٦ .

(٤) مريم ٧ .

(٥) هود ٤٨ .

(٦) مريم ١٢ .

(٧) البقرة ٣٥ .

به بعد الفرقة ، وكانت أمته به صلى الله عليه وسلم خير أمـــة أخرجــت للنـــاس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لمـــا جاءت به الرسل ، ألهمهم التسبيح والتحميد والثناء والتكبير والتوحيد في مســاجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون قياما وقعودا ، ويقاتلون في سبيل الله صفوفا وزحوفا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاة الله تعالى ، فكانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار ، يهدون بالحق وبه يعدلون . فـــاللهم اجعلنـــا مـــنهم يـــا رب العالمين.

ومعنى قوله تعالى " شاهدا " أي على أمتــك ، وقيـــل : شـــاهدا لله تعـــالى بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامـــة ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، كقوله تعالى : " لتكونوا شهداء على النـــاس ويكـــون الرسول عليكم شهيدا " [١] .

وقوله تعالى : " ومبشرا ونذيرا " أي بشيرا للمؤمنين بجزيل الثواب ونـــذيرا للكافرين من وبيل العقاب ، فهو صلى الله عليه وسلم يبشر المؤمنين بالجنة على ما كان منهم من إيمان صادق تبعه عمل صالح واستغفار للذنوب ، وينـــذر الكـــافرين والمنافقين بالنار على ما كان منهم من كفر وضلال ونفاق وتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ثبت أمامهم صدق دعوته بالبراهين الساطعة على صدقه صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند ربه تعالى .

وقوله تعالى : " وداعيا إلى الله بإذنه " أي داعيا للخلق جميعا إلى عبادة ربهم سبحانه وتعالى بأمر من الله تعالى ؛ لأن رسالته صلى الله عليه وسلم رسالة عالمية وشريعته صلى الله عليه وسلم شريعة تمتاز بالمرونة ؛ لأنها تصـــلح لكـــل زمـــان ومكان لما تحويه من يسر وتخفيف وقلة تكاليف .

---

(١) البقرة ١٤٣ .

وقوله تعالى : " وسراجا منيرا " أي وأمرك الظاهر يا نبي الله فيما جئت بـه من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند مكابر ، وقوله تعالى : " ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم " أي لا تطعهم ، ولا تسمع منهم في الذي يقولونه " ودع أذاهم " أي اصفح وتجاوز عنهم ، واترك أمرهم إلى الله تعالى ، فإن فيه الكفاية لهم ، ولهذا قال سبحانه : " وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا".

فالله سبحانه وتعالى ينهي رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في هذه الآية عن طاعتهم فيما يشيرون عليه به من المداهنة في الدين ، حيث قالوا : يا محمد ، لا تذكر آلهتنا بسوء نتبعك ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وعدم الاشتغال بهم ، فالله عز وجل هو حافظك يا رسول الله منهم ، وهو القائم على الأمر كله [١] .

العدة بعد السراح

قوله تعالى

: " يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا " .

الإعراب :

نكحتم : فعل ماض مبني على السكون ، لاتصاله بتاء الفاعل ، والميم للجمع .

المؤمنات : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الكسرة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم .

أن : أداة نصب للفعل المضارع .

---

(١) راجع القرطبي ٢٠١/١٤ وما بعدها ، فتح القدير ٢٨٩/٤ وما بعدها ، وابن كثير ٤٩٨/٣ وما بعدها .

تمسوهن : فعل مضارع منصوب بأن ، وعلامة نصبه حذف النون ؛ لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل ، وهن ضمير مبني في محل نصب مفعول به .

من : حرف جر .

عدة : اسم مجرور بمن ، وعلامة جره الكسرة لأنه مفرد .

تعتدونها : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل ، (ها) ضمير مبني على السكون في محل نصب مفعول به وجملة (تعتدونها) في محل جر صفة لكلمة (عدة) .

وسرحوهن : الواو حرف عطف ، وسرحوهن : فعل أمر مبني على حذف النون ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل ، وهن ضمير مبني في محل نصب مفعول به .

سراحا : مفعول مطلق مبين للنون منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

جميلا : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

التفسير :

هذه الآية الكريمة تشتمل على كثير من أحكام الأسرة من حيث النكاح والطلاق والعدة والمتعة ، ففيها دلالة على أن النكاح هو حقيقة في العقد وحده ، وأن الوطء مترتب على هذا العقد ، فقد اختلف العلماء هل النكاح حقيقة في العقد أم في الوطء أم فيهما جميعا ؟ والآية الكريمة فيها الإجابة الشافية ، والتي تظهر في كون النكاح هو حقيقة في العقد ، فالآية في هذا الموضع صريحة في هذا المعنى ، فالله عز وجل يقول : " إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن " ، ففي هذه الآية دلالة على جواز الطلاق قبل الدخول بها ، والطلاق لا يكون إلا بعد نكاح.

وإن كان قد ذكر في مواضع أخرى من كتاب الله تعالى النكاح بمعنى العقد والوطء حقيقة مثال قوله تعالى : " فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا

غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون "[(١)] ، فالآية فيها دلالة على أن النكاح حقيقة في العقد والوطء معا ؛ لأن الزوج الثاني إن عقد عليها مجرد عقد ولم يدخل بها ، ثم طلقها بعد ذلك لترجع إلى الزوج الأول ؛ فلا يجوز ذلك ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم " حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك "[(٢)] .

وكما سبق في الآية دليل على أنه لا طلاق قبل نكاح وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية على ذلك ، بأن لا يقع الطلاق إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى يقول : " إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن " فعقب النكاح بالطلاق ؛ فدل على أنه لا يصح ولا يقع الطلاق قبل عقد النكاح ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله جميعا [(٣)] .

وذهب أبو حنيفة ومالك رحمهما الله إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إذا تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت

واختلفا فيما إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، فقال مالك رحمه الله لا تطلق حتى يعين المرأة ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه .

أما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية الكريمة ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، قال : ليس بشئ من أجل أن الله تعالى يقول : " يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن " الآية .

---

(١) البقرة ٢٣٠ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب الشهادات – باب شهادة المختبى ٢/٩٣٢ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير ٣/٣٠٥ وما بعدها .

كما أن هناك أحاديث صريحة في ذلك ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا طلاق فيما لا يملك " [١] ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : " لا طلاق قبل النكاح " [٢] .

هذا وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج امرأة ولم يدخل بها ، ثم طلقها أنه لا عدة له عليها ، ولها تتزوج بمن شاءت دون تربص ، ولا يستثنى من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها ، فسواء دخل بها الزوج قبل وفاته أو لم يدخل بها ، فإنها تعتد من أجله أربعة أشهر وعشرا ؛ لقوله تعالى : " والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا " [٣] ، ففي قوله تعالى : " فما لكم عليهن من عدة تعتدونها " إجماع من العلماء على ذلك .

هذا وقد شرع الله تعالى العدة لحكمة بالغة ، منها معرفة براءة الرحم ، ومنها إحداد الزوجة على زوجها المتوفى وفاء لعشرته معها ؛ وفيها كون العدة فرصة عظيمة للرجل المطلق كي يتروى ويتريث في أمر إرجاع زوجته إلى عصمته مرة أخرى ؛ ولذلك يقول تعالى : " الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان "[٤] .

وقد جعل الله عدة المطلقة ثلاثة قروء أي ثلاث حيضات على الأرجح ؛ لأن العلماء اختلفوا في معنى القرء الذي في قوله تعالى : " والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء .. " [٥] هل هو الطهر أو الحيض ، والأدلة التي استدل بها أصحاب الرأي الذي يقول : إن القرء هو الحيض أدلة أقوى مما استدل بها أصحاب الرأي

(١) المستدرك على الصحيحين – كتاب الطلاق ٢/٢٢٢ حديث رقم (٢٨٩١) .

(٢) المستدرك على الصحيحين – كتاب الطلاق ٢/٢٢٢ حديث رقم (٢٨٢٠) .

(٣) البقرة ٢٣٤ .

(٤) البقرة ٢٢٩ .

(٥) البقرة ٢٢٨ .

الثاني القائل بأن القرء هو الطهر وعدة الحامل وضع الحمل ، يقول تعالى : " ... وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن .. " [١] .

وعدة اليائسة – التي انقطع عنها حيضها – والصغيرة ثلاثة أشهر ؛ لقوله تعالى : " واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن ... " [٢] .

أما عدة الحامل المتوفى عنها زوجها فقد اختلف العلماء في عدتها هل هي وضع الحمل أو التربص إلى أبعد الأجلين ؟

فقد ذهب الجمهور من العلماء إلى أن عدتها بوضع حملها ؛ لقوله تعالى : " وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن " [٣] ، ولقوله صلى الله عليه وسلم لسبيعة الأسلمية عندما مات زوجها ، وبعد ذلك بأيام قليلة وضعت حملها فسألته صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم : " قد حللت حين وضعت " [٤] .

وهذا هو الرأي الراجح ؛ لأن أدلته قوية ، أما الرأي الثاني فقد ذهب إليه الإمام علي بن أبى طالب وبعض العلماء وهو أن عدتها أبعد الأجلين ، وليس لها أن تتزوج إلا بعد انقضاء أبعد الأجلين ؛ وفاء لزوجها وعليها أن تحد عليه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا " [٥] .

---

(١) الطلاق ٤ .

(٢) الطلاق ٤ .

(٣) الطلاق ٤ .

(٤) صحيح البخاري – كتاب الطلاق – باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل ١١٢٢/٢ .

(٥) صحيح مسلم – كتاب الطلاق – باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة ١١٢٣/٢ .

وقوله تعالى : " فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا " المتعة هنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها مهرا ، قال تعالى : " لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين"[١]، وقال عز وجل : " وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم " [٢].

وقد روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه وسلم بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين " [٣] .

وقال علي بن أبى طالب : إن كان قد سمى لها مهرا ؛ فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن قد سمى لها مهرا ؛ أمتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل [٤] .

وقوله سبحانه : " وسرحوهن سراحا جميلا " أي أخرجوهن من منازلكم ؛ إذ ليس لكم عليهن عدة ، والسراح الجميل هو الذي لا ضرر فيه ، وقيل في السراح الجميل ألا يطالبها بما كان قد أعطاها .

---

(١) البقرة ٢٣٦ .

(٢) البقرة ٢٣٧ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الطلاق – باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٢٠١٢/٥ .

(٤) راجع تفسير ابن كثير ٤٩٨/٣ وما بعدها .

من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم وتخييره نساءه

قوله تعالى

: " يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شئ رقيبا " .

الإعراب :

إنا : إن حرف توكيد ونصب ، (نا) ضمير مبني على السكون في محل نصب اسم إن .

أحللنا : فعل ماض مبني على السكون ، لاتصاله بناء الفاعلين ، ونا الفاعلين ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل .

لك : اللام حرف جر ، والكاف ضمير مبني على الفتح في محل جر بعد حرف الجر .

أزواجك : أزواج مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه جمع تكسير ، وأزواج مضاف والكاف ضمير مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه .

والجملة الفعلية (أحللنا لك أزواجك) في محل رفع خبر إن .

لكيلا : لكي أداة نصب للفعل المضارع ولا نافية .

يكون : فعل مضارع منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره .

عليك : على حرف جر ، والكاف ضمير مبني على الفتح في محل جر بعد حرف الجر وشبه الجملة (عليك) في محل نصب خبر يكون مقدم .

حرج : اسم يكون مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد ، وقدم الخبر على المبتدأ هنا ؛ لأن الخبر شبه جملة والمبتدأ نكرة .

أن : أداة نصب للفعل المضارع .

تقرّ : فعل مضارع منصوب بأن ، علامة نصبه الفتحة .

أعينهن : أعين فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه جمع تكسير ، وأعين مضاف ، (هن) ضمير مبني في محل جر مضاف إليه .

أعجبك : فعل ماض مبني على الفتح ، والكاف ضمير مبني على الفتح في محل نصْب مفعول به .

حسنهن : حسن فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ، وحسن مضاف وحدة الرصف وصيانة الطرق(هن) ضمير مبني في محل جر مضاف إليه .

والجملة (ولو أعجبك حسنهن) في محل نصب حال من فاعل (تبدل) .

التفسير :

قوله تعالى : " إنا أحللنا لك أزواجك " قيل : المراد بها أن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها أجرها أي مهرها حاشا ذوات المحارم ، وقيل : المراد أحللنا لك أزواجك ، أي الكائنات عندك ؛ لأنهن قد اخترنك على الدنيا وهذا قول الجمهور ؛ لأن قوله تعالى : " آتيت أجورهن " ماض ، ولا يكون الفعل الماضي بمعنى الاستقبال إلا بشروط ، وبهذا يكون الأمر فيه تضييق على النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيد هذا التأويل ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج من أي الناس شاء ، وكان يشق ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا ما سُمِّى ؛ سُرَّ نساؤه بذلك .

قال القرطبي : والقول الأول أصح لقول عائشة رضي الله عنها مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىأحل الله تعالى له النساء [١] .

وقوله تعالى : " وما ملكت يمينك " أي أحل الله تعالى السراري لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأمته مطلقا ، وأحل الله سبحانه الأزواج للنبي صلى الله عليه وسلم مطلقا ، وأحله للخلق بعدد .

وقوله تعالى : " مما أفاءالله عليك " أي رده عليك من الكفار ، والغنيمة قد تسمى فيئا ، أي مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة .

وقوله تعالى : " وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك " فإنه للإشارة إلى ما هو أفضل ، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر ، ووجه إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ، وليس كذلك العمة والخالة وهذا عرف لغوي .

بينما قال ابن كثير في إفراد الذكر لشرفه ، وجمع الإناث لنقصهن ، وقال هذه الآية تبين العدل والوسط بين إفراط النصاري وتفريط اليهود من حيث الزواج بالمرأة ، فالنصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباحت بنت العم وبنت العمة ، وبنت الخال وبنت الخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ وبنت الأخت ، فحرمت نكاح ذوات المحارم ؛ لأنه شنيع فظيع [٢] .

وقوله تعالى : " اللاتى هاجرن معك " أي أسلمن وفي رواية عن أم هانئ أنها قالت : خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم نزل قوله تعالى : " إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠٥/١٤ وما بعدها .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٥٠٠/٣ وما بعدها .

عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك " قالت فلم أكن أحل له ؛ إذ لم أكن ممن هاجر معه (١) .

وقوله تعالى : " وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك " أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك .

فقد جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله : إني قد وهبت نفسي لك ، فقامت قياما طويلا ، فقام رجل ، فقال يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك فيها حاجة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل عندك من شئ تصدقها إياه ؟ " فقال : لا أجد إلا إزاري هذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئا " فقال : لا أجد شيئا ، فقال : " التمس ولو خاتما من حديد " فالتمس فلم يجد شيئا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " هل معك من القرآن من شئ ؟ " قال : نعم سورة كذا وسورة كذا لسور يسميها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " زوجتكها بما معك من القرآن "(٢) .

ومعنى الآية أن الله تعالى أحل للنبي صلى الله عليه وسلم المرأة المصدقة وهي المؤمنة إن وهبت نفسها له بغير صداق ، وأما من لم تكن مؤمنة ، فلا تحل له بمجرد هبتها نفسها لك ، ولكن ليس ذلك بواجب عليه بحيث يلزمه صلى الله عليه وسلم قبول ذلك ، بل هو مقيد بإرادته صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال سبحانه : " إن أراد النبي أن يستنكحها " أي يصيرها منكوحة له ، ويمتلك بضعها بتلك الهبة بلا مهر ، وقد قيل : إنه صلى الله عليه وسلم لم ينكح من الواهبات أنفسهن أحدا ، ولم يكن عنده منهن شئ ، وقيل : كان عنده صلى الله عليه وسلم منهن خولة بنت حكيم كما في صحيح البخاري عن عائشة ، وقال قتادة : هي ميمونة بنت الحارث ، وقال

---

(١) السابق ٥٠١/٣ وما بعدها .

(٢) صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن – باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ١٩١٩/٤ .

الشعبي : هي زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين ، وقال علي بن الحسن والضحاك ومقاتل : هي أم شريك بنت جابر الأسدية ، وقال عروة بن الزبير : هي أم حكيم بنت الأوقص السلمية ، ثم بين الله سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل لغيره من أمته فقال سبحانه : " خالصة لك من دون المؤمنين " أي هذا الإحلال الخالص خاص بك من دون غيرك من المؤمنين .

قال الشوكاني – رحمه الله – : قد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا يجوز لغيره ، ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلا ما روي عن أبى حنيفة وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت ، وأشهد هو على نفسه بمهر ، وأما بدون مهر فلا خلاف في أن ذلك خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ولهذا قال سبحانه : " قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم " أي ما فرضه الله تعالى على المؤمنين في حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فإن ذلك حق عليهم مفروض ، لا يحل لهم الإخلال به ، ولا الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يخصه الله سبحانه وتعالى به توسعة عليه وتكريما له ، فلا يتزوجون إلا بمهر وبينة وشهود وولي [١] .

قوله تعالى : " وما ملكت أيمانهم " أي وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه أو بالشراء وغيره من وجوه الملك ، لا ممن لا يجوز سبيه ، أو كان له عهد من المسلمين[٢]

وقوله تعالى : " لكيلا يكون عليك حرج " قال المفسرون : هذا يرجع إلى أول الآية ، أي أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لكيلا يكون عليك حرج أي ضيق في إنكاح من شئت ممن بَيَّنَهُنَّ الله عز وجل لك .

---

(١) فتح القدير ٢٩٣/٤ .

(٢) راجع تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣٠٩/٣ .

وقوله تعالى : " وكان الله غفورا رحيما " أي هو سبحانه الذي يغفر للعبد إذا أذنب واستغفر وتاب إليه ، وهو الذي يرحم عباده ، ولذلك وسع الأمر ولم يضـيقه عليهم .

قوله تعالى : " ترجى من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء " قرئ : ترجـئ مهموزا وغير مهموز ، وهما لغتان ، والإرجاء : التأخير ، يقال : أرجـأت الأمـر وأرجيته : إذا أخرته ، والمعنى : أن الله عز وجل وسع على رسوله صلى الله عليه وسلم وجعل له الخيار في نسائه ، فله صلى الله عليه وسلم أن يؤخر من شاء منهن ، وله صلى الله عليه وسلم أن يضم إليه من شاء منهن ويضاجعها ويبيت عنـدها ، وقد كان القسم واجبا عليه حتى نزلت هذه الآية ، فارتفع الوجوب ، وصار الخيـار إليه صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن آوى إليه : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينـب ، وممن أرجأه : سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية ، فكان النبي صـلى الله عليه وسلم يسوي بين من آواه في القسم ، وكان يقسم لمن أرجأه ما شاء . وهذا مـا ذهب إليه جمهور العلماء كما ذكر صاحب كتاب فتح القدير وقال : هو الذي دلـت عليه الأدلة الثابتة في الصحيح وغيره (١) .

وقيل : هذه الآية في الواهبات أنفسهن ، لا في غيرهن من الزوجات .

وقيل : معنى الآية في الطلاق ، أي تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء مـنهن ، وقال الحسن : إن المعنى : تنكح من شئت من نساء أمتك ، وتترك نكاح من شـئت منهن ، وقيل : هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : " لا يحل لك النساء من بعـد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن".

وقوله تعالى : " ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليـك " ، والابتغـاء : الطلب ، والعزل : الإزالة ، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم إن أراد أن يؤوي إليه امرأة ممن قد عزلهن من القسمة ، ويضمها إليه ؛ فلا حرج عليه في ذلك ، فالله عز

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢٩٣/٤ وما بعدها .

وجل قد فوَّض الأمر إلى رسوله صلى الله عليه وسلم يصنع ما شاء في زوجاته من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك ، وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء في أمرهن فعل ؛ توسعة عليه ونفيا للحرج عنه صلى الله عليه وسلم ، وأصل الجناح : الميل ، يقال : جنحت السفينة : إذا مالت ، والمعنى : لا ميل عليك بلوم ولا عتاب فيما فعلت .

قوله تعالى : " ذلك " للإشارة إلى ما تقدم من التفويض إلى مشيئته ، وقوله سبحانه : " أن تقر أعينهن " أي إن زوجاتك سيرضين بهذا الحكم من التفويض ؛ لأنه حكم الله تعالى ؛ لأنهن إذا علمن أنه من عند الله ؛ قرت أعينهن ، وقوله سبحانه: " ولا يحزن " أي لا يحصل معهن حزن بإيثارك بعضهن دون بعض " ويرضين بما آتيتهن كلهن " أي يرضين جميعا بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء ، وعزل وإيواء .

قرأ الجمهور " كلهن " بالرفع تأكيدا لفاعل " يرضين " ، وقرأ أبو إياس بالنصب تأكيدا لضمير المفعول في " آتيتهن " ، وقوله تعالى : " والله يعلم ما في قلوبكم " من كل ما تضمرون ، ومن ذلك ما تضمرونه من أمور النساء .

وقوله تعالى : " وكان الله عليما " بكل شئ ، لا تخفى عليه خافية " حليما " لا يعاجل العصاة بالعقوبة (١) .

وقوله تعالى : " لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بنهن من أزواج " قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم : إن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما اخترن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ،

---

(١) راجع فتح القدير للشوكاني ٢٩٤/٤ وما بعدها .

أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري ، فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج ؛ لتكون المنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن (١) .

فعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم " (٢) ، وذلك قوله تعالى : " ترجى من تشاء منهن " الآية . فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها والله أعلم .

وقوله تعالى : " ولا أن تبدل بهن من أزواج " أي لا يحل لك التبدل بأزواجك ، ولو أعجبك حسن غيرهن ممن أردت أن تجعلها بدلا من إحداهن ، وهذا التبدل أيضا من جملة ما نسخه الله سبحانه في حق الرسول صلى الله عليه وسلم على القول الراجح .

وقوله تعالى : " إلا ما ملكت يمينك " استثناء من النساء ؛ لأنه يتناول الحرائر والإماء ، وقد اختلف العلماء في تحليل الأمة الكافرة ، فالقول الأول : أنها تحل للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لعموم الآية ، وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم ، والقول الثاني : أنها لا تحل له تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة .

قال الشوكاني : ويترجح القول الأول بعموم هذه الآية ، وتعليل المنع بالتنزه ضعيف ، فلا تنزه عما أحله الله سبحانه وتعالى ، فإن ما أحله فهو طيب لا خبيث

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ٥٠٢/٣ وما بعدها .

(٢) الطبقات الكبرى : أبو عبد الله البصري الزهري محمد بن سعد بن منيع (٢٣٠هـ) – دار صادر – بيروت – د/ت – ١٩٤/٨ – ذكر من قال ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أحل له جميع النساء .

باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح ، لا باعتبار غير ذلك ، فالمشركون نجس بنص القرآن ، ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله تعالى : " ولا تمسكوا بعصم الكوافر .."[١]

وأرى ترجيح الرأي الثاني ؛ لأن المشركة أو الكافرة نجسة بنص القرآن ، كما أنها لا تتورع عن ارتكاب المعاصي والكبائر من الذنوب والكيد للإسلام ، فحاشا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم أن تكون في حبالته مشركة أو كافرة .

كما أن من كان من النساء في عصمته صلى الله عليه وسلم وحبالته لهن حرمة فهن أمهات المؤمنين ، والكافرة أو المشركة لو كانت أمة تحل للنبي صلى الله عليه وسلم للحقت بهن ولو في ارتفاع القدر ، وهذا محال ، أضف إلى ذلك تنزه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مباشرة كافرة ، والله تعالى أعلى وأعلم .

وأخرج البزار وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادلني امرأتك ، وأبادلك امرأتي : أي أنزل لك عن امرأتي وانزل أنت لي عن امرأتك ، فأنزل الله سبحانه : " ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن " قال : فدخل عيينة بن حصن الفزاري إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أين الاستئذان ؟ " قال : يا رسول الله ، ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت ، ثم قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذه عائشة أم المؤمنين " قال : أفلا أنزل لك عن أحسن خلق الله ؟ قال : " يا عيينة ، إن الله حرم ذلك " فلما أن خرج ؛ قالت عائشة : " من هذا ؟ " قال : " أحمق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيد قومه . " [٢] .

---

(١) الممتحنة ١٠ .

(٢) سنن الدارقطني : أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (٣٨٥هـ) – دار المعرفة – بيروت – ١٣٨٦هـ – كتاب النكاح ٢١٨/٣ .

هذا وقد ذكر القرطبي في تفسيره ما خُصَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأمة ، فقال رحمه الله : فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم أشياء لم تفرض على غيره ، وحُرِّمت عليه أفعال لم تحرم على غيره ، وحُللت له أشياء لم تحلل لغيره منها ما هو متفق عليه ، ومنها ما هو مختلف فيه .

أما ما فرض عليه دون غيره فتسعة وهي :

أولا : التهجد بالليل ، فقيل : إنه كان واجبا عليه صلى الله عليه وسلم إلى أن مات ؛ لقوله تعالى : " يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا " [1] ، والمنصوص أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى : " ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا " [2] .

ثانيا : الضحى

ثالثا : الأضحى

رابعا : الوتر وهو يدخل في قسم التهجد .

خامسا : السواك

سادسا : قضاء دين من مات معسرا

سابعا : مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع .

ثامنا : تخيير النساء .

تاسعا : إذا عمل عملا أثبته ، وزاد غيره : وكان يجب عليه إذا رأى منكرا أنكره وأظهره ؛ لأن إقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه .

أما ما حُرِّمَ عليه صلى الله عليه وسلم فجملته عشرة وهي :

أولا : تحريم الزكاة عليه صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ثانيا : صدقة التطوع عليه ، وفي آله خلاف .

---

(١) المزمل ١ .

(٢) الإسراء ٧٩ .

ثالثا : خائنة الأعين ، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر .

رابعا : الأكل متكئا .

خامسا : أكل الأطعمة كريهة الرائحة .

سادسا : التبدل بأزواجه ، وفيه نظر على ما سبق ذكره .

سابعا : نكاح امرأة تكره صحبته .

ثامنا : نكاح الحرة الكتابية .

تاسعا : نكاح الأمة .

عاشرا : حرم عليه الشعر وتعليمه والكتابة ؛ تأكيدا لحجته ، وبيانا لمعجزته ، قال تعالى : " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون " [(١)].

كما حرم عليه صلى الله عليه وسلم أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس ؛ قال تعالى : " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا .. " [(٢)].

أما ما أُحلَّ له دون غيره :

أولا : الغنيمة ، فقد أُحلَّت له صلى الله عليه وسلم دون غيره من الرسل السابقين ، وأحلت لأمته صلى الله عليه وسلم بإحلالها له صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : الاستقلال بالخمس من الغنيمة ؛ لقوله تعالى : " واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. "[(٣)].

---

(١) العنكبوت ٤٨ .

(٢) طه ١٣١ .

(٣) الأنفال ٤١ .

ثالثا : صيام الوصال ، وهو أن يصل صيامه ليلا نهارا لا يفطر ولا يتسحر بين اليومين ، ولا بين الثلاثة ، فقد نهى صلى الله عليه وسلم عن صيام الوصال ، وقال صلى الله عليه وسلم:"إني لست كهيئتكم إني فيطعمني ربي ويسقين"(١)

رابعا : الزيادة على أربع نسوة ؛ لأسباب اجتماعية وتشريعية ونحو ذلك.

خامسا : النكاح بلفظ الهبة .

سادسا : النكاح بغير ولي .

سابعا : النكاح بغير صداق .

ثامنا : نكاحه في حالة الإحرام ، وهذا مختلف فيه بين الفقهاء .

تاسعا : سقوط القسم بين الأزواج عنه صلى الله عليه وسلم

عاشرا : أنه أعتق صفية ، وجعل عتقها صداقها .

الحادي عشر : دخوله صلى الله عليه وسلم مكة بغير إحرام ، وفي حقنا فيه خلاف.

الثاني عشر : القتال بمكة ، ولم يحل له صلى الله عليه وسلم إلا ساعة من نهار ، كما جاء في الحديث (٢) .

الثالث عشر : أنه صلى الله عليه وسلم لا يورث ؛ وإنما ذكر هذا في قسم التحليل ؛ لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض ؛ زال عنه أكثر ملكه ، ولم يبق له إلا الثلث خالصا ، وبقي ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما تقرر بيانه في آية المواريث .

الرابع عشر : بقاء زوجيته من بعد موته .

الخامس عشر : إذا طلق امرأة تبقى حرمته عليها فلا تنكح .

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الصوم – باب الوصال ٦٩٣/٢ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب العلم – باب كتابة العلم ٥٣/١ .

ومما أبيح له أيضا أمور أخرى منها أنه بُعِثَ إلى كافة الخلق ، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا له ولأمته صلى الله عليه وسلم ، ونصر بالرعب ، فكان يخافه العدو من مسيرة شهر ، وأنه على كل أحد من المسلمين أن يقي النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ؛ لقوله تعالى : " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم .. " (١) .

وقد فضله الله سبحانه على سائر الرسل بأن جعل القرآن معجزة له ، وجعل هذه المعجزة باقية إلى قيام الساعة ، ولهذا كانت نبوته صلى الله عليه وسلم مؤيدة ، لا تنسخ أبدا إلى يوم القيامة (٢) .

التزام الأدب عند دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى :

: " يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شئ عليما لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شئ شهيدا " .

الإعراب :

لا : ناهية .

تدخلوا : فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، وعلامة جزمه حذف النون ؛ لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبني في محل رفع فاعل .

بيوت : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه جمع تكسير .

---

(١) الأحزاب ٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/٢٢٣ وما بعدها .

النبي : وبيوت مضاف ، والنبي مضاف إليه مجرور ، وعلامة جره الكسرة ؛ لأنه مفرد .

يؤذن : فعل مضارع منصوب بأن ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره وهو مبني للمفعول ، ونائب الفاعل شبه الجملة (لكم) في رفع .

دعيتم : فعل ماض (مبني للمفعول) مبني على السكون ؛ لاتصاله بتاء الفاعل ، وتاء الفاعل واقعة نائب فاعل ، والميم للجمع والفعل هنا للشرط .

فادخلوا : الفاء واقعة في جواب الشرط ، وادخلوا : فعل أمر مبني على حذف النون ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل .

كان : فعل ماض ناقص مبني على الفتح .

يؤذي : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة المقدرة على آخره ؛ لأنه فعل معتل الآخر والفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

النبي : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد ، والجملة الفعلية (كان يؤذي النبي) في محل رفع خبر إن .

والله : الواو للابتداء ، الله : لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة .

لا : نافية حرف مبني على السكون لا محل له من الإعراب .

يستحي : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة المقدرة على آخره ؛ لأنه فعل معتل الآخر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) .

من الحق : من حرف جر ، الحق اسم مجرور بمن وعلامة جره الكسرة ؛ لأنه مفرد ، والجملة الفعلية (لا يستحي) في محل رفع خبر المبتدأ.

حجاب : مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة ؛ لأنه مفرد .

أن : أداة نصب للفعل المضارع .

تؤذوا : فعل مضارع منصوب بأن ، وعلامة نصبه حذف النون ؛ لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل ، والمصدر المؤول (أن تؤذوا) في محل رفع اسم كان ، وخبرها شبه الجملة (لكم) في محل نصب .

إن : أداة شرط جازمة .

تبدوا : فعل الشرط مضارع مجزوم ، وعلامة جزمه حذف النون ؛ لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبني في محل رفع فاعل .

شيئا : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

أو : حرف عطف .

تخفوه : فعل مضارع مجزوم ، وعلامة جزمه حذف النون ، وواو الجماعة ضمير مبني في محل رفع فاعل ، والهاء ضمير مبني على الضم في محل نصب مفعول به .

فإن : الفاء واقعة في جواب الشرط ، إن : حرف توكيد ونصب .

الله : لفظ الجلالة اسم إن منصوب وعلامة نصبه الفتحة .

كان : فعل ماض ناقص مبني على الفتح واسم كان : ضمير مستتر تقديره (هو) .

بكل : جار ومجرور ، وكل مضاف .

شئ : مضاف إليه مجرور ، وعلامة جره الكسرة ؛ لأنه مفرد .

عليما : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

سبب النزول :

لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش مطلقة زيد بأمر من الله تعالى ؛ أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا ؛ جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته مولية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أنس : فما أدري أأنا أخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أن القوم قد خرجوا أو أخبرني ، قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت معه ، فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ، قال : ووعظ الناس بما وعظوا به ، وأنزل الله عز وجل : " يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي " – إلى قوله تعالى: " إن ذلكم كان عند الله عظيما " (١) ، وقال قتادة ومقاتل : إن هذا السبب جرى في بيت أم سلمة ، والأول الصحيح كما رواه الصحيح .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون (٢) .

وهذا أدب أدَّب الله تعالى به الثقلاء ممن يجلسون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويثقلون عليه بالجلوس أو بالكلام أو بالأكل .

وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة : إن سببها أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت الآية .

وروى في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال عمر رضي الله عنه : وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر .

التفسير :

قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه ، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) صحيح مسلم – كتاب النكاح – باب زواج زينب بنت جحش ١٠٤٨/٢ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ٢٢٤/١٤ وما بعدها .

ودخل في النهي سائر المؤمنين ، والتزم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذنه عند الأكل ، لا قبله لانتظار نضج الطعام .

فقوله تعالى : " غير ناظرين إناه " أي غير منتظرين وقت نضجه ، وقوله تعالى : " ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا " فأكد المنع ، وخص وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب ، وحفظ الحضرة الكريمة من المباسطة المكروهة ، فأمر الله تعالى بعد الإطعام بأن يتفرق جميعهم ، وينتشروا ، والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل ، والدليل على ذلك أن الدخول حرام ، وإنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل ؛ زال السبب المبيح ، وعاد التحريم إلى أصله .

وقوله تعالى : " ولا مستأنسين لحديث " عطف على قوله تعالى : " غير ناظرين " أي لا تمكثوا مستأنسين بالحديث ، كما فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وليمة زينب .

وقوله تعالى : " إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق " أي الانتظار والاستئناس للحديث كان سببا في مضايقة النبي صلى الله عليه وسلم وأهله ، كما أنهم يتحدثون بما لا يريده صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يحتمل إيذاءهم ويصبر عليهم كرما منه صلى الله عليه وسلم ، فعلّم الله تعالى من يحضر مجلس النبي صلى الله عليه وسلم سواء للطعام أو العلم أو نحوه الأدب ، فصار هذا أدبا لهم ولمن بعدهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخجل أن يقول لهم : قوموا أو اخرجوا ، والله عز وجل لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق ، ولا يمتنع من بيانه وإظهاره .

ثم يذكر الله تعالى أدبا جديدا متعلقا بنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه : " وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب " أي إذا طلبتم منهن شيئا يُتَمَتَّع به من الماعون ونحوه ، فعليكم أن تسألوا هذا من وراء ستر يفصل بينكم وبينهن ، والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به ، وقيل : الفتوى ، وقيل : صحف

القرآن ، والصواب أنه عام في جميع ما يطلب منهن من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا .

وقوله تعالى : " ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن " أي مما يخطر لكم من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء ، وللنساء في أمر الرجال ، فهذا الستر أنفى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية ، وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة بالأجنبية مهما كانت أحواله مع الله ، ومهما بلغ درجة من التقوى ، فإنه لا يحل له الخلوة بمن لا تحل له ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما .. " (١) ، فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته (٢) .

قوله تعالى : " وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله " أي بالجلوس عنده منتظرين الطبخ ونضج الطعام ، أو بالكلام في وقت راحته صلى الله عليه وسلم وهذا التكرار لتأكيد الحكم ، وهو أنه يحرم عليهم فعل ذلك ؛ لأنه يكون سببا في مضايقة الرسول صلى الله عليه وسلم وأهله مع كونه صلى الله عليه وسلم يستحي منهم ويخجل أن يقول لهم قوموا أو اخرجوا.

قوله تعالى : " ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا " ، وسبب نزولها أن رجلا قال : لو قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت عائشة رضي الله عنها؛ فأنزل الله تعالى : " وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله " الآية ، ونزلت : " وأزواجه أمهاتكم " ، هذا قول قتادة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رجل من سادات قريش : لو توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة رضي الله عنها ، وهي بنت عمي ، قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله ، وقال ابن عباس : وندم الرجل على ما حدث به في نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه ، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله ، وأعتق رقيقا ، فكفر الله عنه .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) راجع تفسير القرطبي ٢٢٧/١٤ وما بعدها .

وقال ابن عطية : روى أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لتزوجت عائشة رضي الله عنها ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأذى به .

وتحريم نكاح أزواجه صلى الله عليه وسلم بعد موته من خصائصه صلى الله عليه وسلم تمييزا وتشريعا له صلى الله عليه وسلم ، وتنبيها على مكانته ومرتبته عند الله سبحانه وتعالى .

قال الشافعي رحمه الله : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن استحل ذلك كان كافرا ؛ لقوله تعالى : " وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا .. " ، وقيل : إنما منع التزوج بهن رضي الله عنهن ؛ لأنهن أزواجه في الجنة ، وأن المرأة في الجنة لآخر أزواجها .

قال حذيفة رضي الله عنه لامرأته : إن سرك أن تكوني معي في الجنة إن جمعنا الله تعالى فيها فلا تزوجي من بعدي ، فإن المرأة لآخر أزواجها .

أقول : هذا الكلام فيه نظر ؛ لأن المرأة قد تكون لأحسن أزواجها خلقا في الجنة إن قدر الله تعالى لهما الجنة والله تعالى أعلى وأعلم .

وقد اختلف العلماء في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، هل بقين أزواجا ، أم زال النكاح عنهن بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهن عدة أم لا ؟

فقيل : عليهن العدة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم توفى عنهن ، والعدة عبادة .

وقيل : لا عدة عليهن ؛ لأنها مدة تربص ، ولا ينتظر بها الإباحة .

قال القرطبي : والثاني هو الصحيح .

أقول وبالله التوفيق : هذا الكلام فيه نظر ؛ لأن العدة فيها معنى العبادة ، كما أن عدة المتوفي عنها زوجها فيها الإحداد على الزوج الميت ، ولا أحرى بأن تعتد زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاء لعشرته وحسن خلقه معهن جميعا ،

فلا يضعن طيبا ، ولا يخرجن من بيوتهن إلا لضرورة ، ولا يلبسن من الثياب المزخرف الذي يلفت النظر ونحو ذلك مما ينبغي على الزوجة المتوفى عنها زوجها أن تراعيه فترة الإحداد ؛ لتبين مدى حزنها لفراق زوجها ، وتفجعها على فقده ، والله تعالى أعلى وأعلم .

أما الزوجة التي فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته مثل الكلبية وغيرها فهل كان يحل لغيره نكاحها ؟ فيه خلاف ، والصحيح : جواز ذلك لما روى أن الكلبية تزوجها عكرمة بن أبي جهل ، وقيل : الذي تزوجها الأشعث بن قيس الكندي ، وقيل : الذي تزوجها مهاجر بن أبي أمية ، ولم ينكر أحد ذلك فدل على أنه إجماع (١) .

وقوله تعالى : " إن ذلكم كان عند الله عظيما " يعني إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نكاح أزواجه من جملة الكبائر ، وأنه لا ذنب أعظم منه ، وهذا مما شدد فيه الله تبارك وتعالى وتوعد به ، والله سبحانه لا يتوعد إلا على كبيرة من الكبائر أو ذنب عظيم والعياذ بالله تعالى من ذلك .

قوله تعالى : " لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ".

هؤلاء المذكورون في هذه الآية لا يجب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيرهن من النساء الاحتجاب منهم ، ولم يذكر العم والخال ؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين .

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية بعض المحارم ، وذكر الجميع في سورة النور ، فهذه الآية بعض تلك .

ولما نزلت آية الحجاب ؛ قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ٥٠٧/٣ وما بعدها ، والقرطبي في تفسيره ٢٢٩/١٤ وما بعدها .

وقوله تعالى : " ولا نسائهن " المراد النساء المؤمنات ؛ لأن الكافرات غير مأمونات على العورات ، والنساء كلهن عورة .

وقوله تعالى : " ولا ملكت أيمانهن " من العبيد والإماء ، وقيل : الإماء خاصة ومن لم يبلغ من العبيد ، والخلاف فيمن بلغ من العبيد .

وقوله تعالى : " واتقين الله إن الله كان على كل شئ شهيدا " لما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف ، وانجزمت الإباحة ، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة ، وهذا غاية في البلاغة والإيجاز ، فكأنه سبحانه وتعالى قال : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره ، وخص النساء بالذكر ، وعينهن في هذا الأمر ؛ لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن ، ثم توعد بقوله سبحانه " إن الله كان على كل شئ شهيدا " أي أنه سبحانه شهيد على كل شئ لا يخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب ؛ لأنه سبحانه مجاز المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته [١] .

المخالفة والمعصية تجلب اللعنة والعذاب

قوله تعالى

: " إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا " .

الإعراب :

إن : حرف توكيد ونصب .

الله : لفظ الجلالة اسم إن منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة .

وملائكته : معطوف منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه جمع تكسير ، وملائكة مضاف والهاء ضمير مبني على الضم في محل جر مضاف إليه ، فالضمير إذا اتصل بالاسم يعرب مضافا إليه .

---

(١) راجع فتح القدير ٢٩٨/٤ وما بعدها ، وتفسير ابن كثير ٥٠٧/٣ وما بعدها .

يصلون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه ثبوت النون ؛ لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل .

على النبي : جار ومجرور ، والجملة الفعلية (يصلون على النبي) في محل رفع خبر إن

تسليما : مفعول مطلق (مؤكد للفعل) منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد.

إن : حرف توكيد ونصب .

الذين : اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم إن .

يؤذون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع ثبوت النون ، وواو الجماعة فاعل .

الله : لفظ الجلالة مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة

ورسوله : معطوف منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، والهاء ضمير مبني على الضم في محل جر مضاف إليه ، وجملة صلة الموصول (يؤذون الله ورسوله) لا محل لها من الإعراب .

لعنهم : لعن : فعل ماض مبني على الفتح ، والهاء ضمير مبني على الضم في محل نصب مفعول به ، والميم تدل على الجمع .

الله : لفظ الجلالة فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة .

في الدنيا : في حرف جر ، والدنيا : اسم مجرور بفي ، وعلامة جره الكسرة المقدرة ؛ لأنه اسم مقصور ، وجملة (لعنهم الله في الدنيا والآخرة) في محل رفع خبر إن .

عذابا : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، لأنه مفرد .

مهينا : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد

بهتانا : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

مبينا : صفة منصوبة ، وعلامة نصبها الفتحة ؛ لأنه مفرد .

التفسير :

قوله تعالى : " إن الله وملائكته يصلون على النبي " هذه الآية شرف الله تعالى بها رسوله صلى الله عليه وسلم حياته وموته ، وذكر منزلته عنده ، والصلاة من الله سبحانه الرحمة والرضوان والمغفرة ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره صلى الله عليه وسلم .

وقد اختلف العلماء في الضمير في قوله تعالى : " يصلون " ، فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ، وهذا قول من الله تعالى شرف به ملائكته فلا يصحبه الاعتراض المذكور في قول الخطيب : " من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى " فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بئس الخطيب أنت ، قل : ومن يعص الله ورسوله " [١] .

قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير ، ولله أن يفعل في ذلك مايشاء ، وقالت فرقة : في الكلام حذف ، وتقديره : إن الله يصلي على النبي وكذلك ملائكته يصلون عليه ، وليس في الآية اجتماع في الضمير ، وذلك جائز للبشر .

وقد قرأ الجمهور " وملائكته " بالنصب ، وقرأ ابن عباس "وملائكتُه" بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول " إن " .

وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا صلواعليه وسلموا تسليما " فيه دلالة على أن هذه عبادة فيها تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم .

ولا خلاف بين العلماء أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض في العمر مرة ، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها العبد ، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه .

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الجمعة – باب تخفيف الصلاة والخطبة – ٥٩١/٢ .

فالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجبة كلما جرى ذكره صلى الله عليه وسلم على الألسنة ، وفي الحديث : " من ذكرت عنده فلم يصل على دخل النار فأبعده الله " (١) .

ويروى أنه قيل له : يا رسول الله ، أرأيت قول الله عز وجل : "إن الله وملائكته يصلون على النبي " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هذا من العلم المكنون ، ولولا أنكم سألتموني عنه ، ما أخبرتكم به ، إن الله تعالى وكل بي ملكين ، فلا أذكر عند مسلم ، فيصلي علي إلا قال ذلك الملكان : غفر الله لك ، وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ، ولا أذكر عند عبد مسلم ، فلا يصلي علي إلا قال ذلك الملكان لا غفر الله لك ، وقال الله تعالى لذينك الملكين آمين " (٢) .

ومن العلماء من قال : تجب في كل مجلس مرة ، ولو تكرر ذكره صلى الله عليه وسلم ، كما قال في آية السجدة وتشميت العاطس ، وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ، ومنهم من أوجبها في العمر مرة كما سبق ذكره ، كما في إظهار الشهادتين .

قال القرطبي : والذي يقتضيه الاحتياط الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم عند كل ذكر له صلى الله عليه وسلم ؛ لما ورد من الأخبار في ذلك .

أما كيفية السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فهي الواردة في صيغة التشهد ، وهو قوله : " السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته " ، أما كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال كعب بن عجرة : لما نزل قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ،هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة ؟ فقال : قل : " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل

---

(١) صحيح ابن حبان – ذكر رجاء دخول الجنان – ١٨٨/٣ .

(٢) راجع القرطبي في تفسيره ٢٣٣/١٤ وما بعدها .

إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت علـــى إبــراهيم وعلـــى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " [١] .

وفي فضلها يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من صـــلى علـــي صـــلاة ؛ صلى الله عليه عشرا " [٢] .

وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمد صلى الله عليــه وســلم أفضـــل العبادات ؛ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادة ليس كذلك .

وقال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة ، فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صـــلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما .

أما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، فقد ذهب جمهـــور العلماء إلى أنها سنة من سنن الصلاة ومستحباتها ، قال ابن المنـــذر : يســـتحب ألا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن ترك ذلـــك ؛ فصلاته مجزية في مذهب كثير من العلماء ، وهم المالكية وأصحاب الرأي وســـفيان الثوري وأهل المدينة وغيرهم ، وحكى عن مالك وسفيان أنها مستحبة فـــي التشـــهد الأخير ، وأن تاركها في التشهد مسئ [٣] .

وذهب الشافعي إلى إعادة الصلاة ممن صلى صلاة ، ولم يصل فيهـــا علـــى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : تجب الإعادة ، وأوجب إسحاق الإعادة مـــع

---

(١) صحيح ابن خزيمة – باب صفة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ١/٣٥١ .

(٢) مسند أبي عوانة ٢ : أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (٣١٦هـ) – دار المعرفة – بيروت – د/ت – بيان إيجاب إجابة المؤذن والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ١/٣٣٦

(٣) القرطبي في تفسيره ١٤/٢٣٢ وما بعدها .

تعمد تركها دون النسيان ، وممن قال بوجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة محمد بن الموَّاز من فقهاء المالكية.

قوله تعالى : " وسلموا تسليما " نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه ، وكذا من بعدهم أمروا بأن يسلموا عليه صلى الله عليه وسلم عند حضورهم قبره ، وعند ذكره صلى الله عليه وسلم ، فقد روى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه ، فقلت : إنا لنرى البشرى في وجهك ! فقال صلى الله عليه وسلم : " إنه أتاني الملك ، فقال يا محمد : إن ربك يقول أما يرضيك إنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا " [١].

ويقول صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله إلي روحي حتى أرد عليه السلام " [٢].

وروى النسائي أيضا عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله ملائكة سياحين في الأرض ، يبلغوني من أمتي السلام " [٣].

قال الشوكاني في تفسيره : واعلم أن هذه الصلاة من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وإن كان معناها الرحمة ، فقد صارت شعارا له صلى الله عليه

---

(١) سنن الدارمي : أبو محمد الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن (٢٥٥هـ) – دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٠٧هـ – ط١ – كتاب الرقاق – باب فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم – ٤٠٨/٢ .

(٢) سنن البيهقي الكبرى : أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (٤٥٨هـ) – مكتبة دار الباز – مكة المكرمة – ١٤١٤هـ /١٩٩٤م – باب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم – ١٩٥/٣ .

(٣) صحيح ابن حبان – ذكر البيان بأن سلام المسلم على النبي صلى الله عليه وسلم يبلغه في قبره ١٩٥/٣ .

وسلم يختص به دون غيره ، فلا يجوز لنا أن نصلي على غيره من أمته ، قال ابـــن عباس رضي الله عنهما : لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبي صلى الله عليـــه وسلم ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار ، وقيل : تجــوز الصـــلاة علـــى المسلمين والمسلمات ، واحتجوا بقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليـــه وســـلم : " وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ... " (١) ، ولقوله تعالى : " أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة " (٢) ، ولقوله تعالى : " هو الذي يصلي عليكم وملائكته" (٣) .

كما استدلوا بحديث عبد الله بن أبى أوفي الثابت في الصحيحين وغيرهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللهم صل عليهم ، فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفي " (٤) .

فقال الشوكاني ردا على هؤلاء الذين أجازوا تعميم الصلاة علـــى الرســـول صلى الله عليه وسلم وغيره من المسلمين والمسلمات بقوله : إن هذا الشعار الثابـــت لرسول الله صلى الله عليه وسلم له أن يخص به من شاء ، وليس لنا أن نطلقه على غيره ، أما استدلالهم بالآيات المذكورة سابقا فليس فيه إلا أن الله سبحانه يصلي على طوائف من عباده ، كما يصلي على من يصلي على رسوله الكريم صلى الله عليـــه وسلم مرة واحدة بعشر صلوات ، وليس في ذلك أمر لنا ولا شرعه الله في حقنـــا ، بل لم يشرع لنا إلا الصلاة والتسليم على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أن لفـــظ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم شعار له ، فكذا لفظ السلام عليه ، وقد جرت عادة الجمهور من هذه الأمة سلفها وخلفها على الترضى عن الصحابة ، والتـــرحم على من بعدهم ، والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه ، كما أرشدنا إلى ذلك المولى عـــز

---

(١) التوبة ١٠٣ .

(٢) البقرة ١٥٧ .

(٣) الأحزاب ٤٣ ، وراجع فتح القدير للشوكاني ٢٩٢/٤ وما بعدها .

(٤) صحيح البخاري – كتاب المغازي – باب غزوة الحديبية ١٥٢٤/٤ .

وجل بقوله تعالى : " والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا " [(١)] .

ولما ذكر الله عز وجل ما يجب لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم من التعظيم والتوقير له ، ذكر الوعيد الشديد لمن يؤذونه فقال سبحانه : " إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة " .

قيل : المراد بالأذى هنا هو فعل ما يكرهه الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم من المعاصي ، لاستحالة التأذي منه سبحانه ، قال المفسرون : هم المشركون واليهود والنصارى وصفوا الله تعالى بما يجب أن يتنزه عنه من الولد ، فقال المشركون : الملائكة بنات الله ، وقال اليهود : عزير ابن الله ، وقال النصارى: المسيح ابن الله ، وكذب المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشجوا رأسه ، وكسروا رباعيته ، واتهموه صلى الله عليه وسلم تارة بالجنون ، وتارة بالشعر ، وتارة بالسحر ، وهذا هو قول جمهور العلماء .

قال عكرمة رضي الله عنه : الأذية لله سبحانه بالتصوير ، والتعرض لفعل مالا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها .

وقالت جماعة : إن الآية فيها حذف ، والتقدير : إن الذين يؤذون أولياء الله ، وأما أذية رسوله صلى الله عليه وسلم فهي كل ما يؤذيه من قول أو فعل .

ومعنى اللعنة : الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه ، وجعل ذلك في الدنيا والآخرة لتشملهم اللعنة فيهما ، بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم .

قوله تعالى : "وأعد لهم " مع ذلك اللعن " عذابا مهينا " يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة ؛ لما يفيده معنى الإعداد من كونه في الدار الآخرة [(٢)] .

---

(١) الحشر ١٠ .

(٢) فتح القدير ٤/٣٠٠ وما بعدها .

قوله تعالى : " والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات " بأي وجه من وجوه الأذى من قول أو فعل ، ومعنى قوله تعالى : " بغير ما اكتسبوا " أي أن ذلك لم يكن لسبب فعلوه يوجب عليهم الإيذاء ويستحقونه .

أما الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبه مما يوجب حدا أو تعزيرا أو نحوهما ، فذلك حق أثبته الشرع ، وأمرنا الله تعالى به ، وندبنا إليه ، وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب ؛ فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرمة على أي وجه كان ، ما لم يجاوز ما شرعه الله ، ثم أخبر الله سبحانه عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ماكتسبوا فقال سبحانه " فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا " أي ظاهرا واضحا لاشك في كونه من البهتان والإثم .

حجاب المؤمنات ومصير المنافقين والكافرين

قوله تعالى :

" يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا " .

الإعراب:

النبي : نعت مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد .

قل : فعل أمر مبني على السكون ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت .

يدنين : فعل مضارع مبني على السكون ؛ لاتصاله بنون النسوة ، والجملة الفعلية (يدنين عليهن من جلابيبهن) في محل نصب جملة مقول القول .

غفورا : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

رحيما : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد ، ويجوز أن يكون الخبر الثاني لكان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ، وغفورا يكون الخبر الأول لكان .

لم ينته : فعل مضارع مجزوم بلم ، وعلامة جزمه حذف حرف العلة (فعل الشرط)

المنافقون : فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الواو ؛ لأنه جمع مذكر سالم .

في قلوبهم : في حرف جر ، وقلوب اسم مجرور بفي ، وعلامة جره الكسرة ؛ لأنه جمع تكسير ، وقلوب مضاف ، وهم ضمير مبني في محل جر مضاف إليه ، وشبه الجملة (في قلوبهم) في محل رفع خبر مقدم .

مرض : مبتدأ مؤخر مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد ، والجملة الاسمية (في قلوبهم مرض) صلة الموصول لا محل لها من الإعراب .

المرجفون : معطوف مرفوع ، وعلامة رفعه الواو ؛ لأنه جمع مذكر سالم .

لنغرينك : اللام حرف توكيد ، ونغرينك : فعل مضارع مبني على الفتح ؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (نحن) والكاف : ضمير مبني على الفتح في محل نصب مفعول به (لنغرينك) جواب القسم .

علمها : علم مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد ، وعلم مضاف والها ضمير مبني على السكون في محل جر مضاف إليه .

الله : لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور ، وعلامة جره الكسرة .

إن : حرف توكيد ونصب .

الله : لفظ الجلالة اسم إن منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

لعن : فعل ماض مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) .

الكافرين : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الياء ؛ لأنه جمع مذكر سالم والجملة الفعلية (لعن الكافرين) في محل رفع خبر إن .

تقلب : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه لم يسبقه ناصب ولا جازم وهو فعل مبني للمجهول .

وجوههم : نائب فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأن (وجوه) جمع تكسير ووجوه مضاف ، (هم) ضمير مبني في محل جر مضاف إليه .

آتهم : آت فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت) ، والهاء ضمير مبني في محل نصب مفعول به أول والميم تدل على الجمع .

ضعفين : مفعول به ثان منصوب ، وعلامة نصبه الياء ؛ لأنه مثنى .

لعنا : مفعول مطلق (مبين للنوع) منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

كبيرا : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

سبب النزول :

كانت عادة العربيات الخروج متبذلات ، أي كن يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء ، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن ، فكن يتبرزن في الصحراء ، وذلك قبل اتخاذهم الكنف ، وكان يقابلهن بعض الشباب الفجار ، وقيل : بعض المنافقين ، ليتعرضوا لهن بالإيذاء ، فكانت الحرة تصيح به ؛ ليرجع عنها هذا الفاجر ، وكان نسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن يتعرضن لهذا الإيذاء وهذه المضايقات ، فذكرن ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية الكريمة : " يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن " الآية ، وكان المنافقون يقولون : إنما نتعرض للإماء وليس للحرائر ، فنزلت الآية ، فأمرهن الله تعالى أن يخالفن زي الإماء حتى يعرفن ، فلا يتعرض لهن أحد من الناس [١] .

---

(١) تفسير القرطبي ٢٥٠/١٤ وما بعدها .

التفسير :

قوله تعالى : " قل لأزواجك وبناتك " ، ذكرنا فيما سبق أنه صلى الله عليه وسلم مات عن تسع زوجات ، خمس منهن من قريش ، وهن : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وثلاث منهن من سائر العرب ، وهن : ميمونة وزينب بنت جحش ، وجويرية ، وواحدة من بني هارون ، وهي صفية .

أما أولاده صلى الله عليه وسلم الذكور : فالقاسم ، والطاهر ، وعبد الله ، والطيب ، وكلهم من خديجة رضي الله عنها .

أما إبراهيم فكان من مارية القبطية ، وكل أولاده صلى الله عليه وسلم ماتوا في حياته صلى الله عليه وسلم عدا فاطمة ، فقد لحقت به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بزمن يسير .

أما بناته صلى الله عليه وسلم فمنهن فاطمة الزهراء بنت خديجة رضي الله عنهما ، وهي أصغر بناته وتزوجها علي بن أبي طالب ، وأنجبت منه الحسن والحسين رضي الله عنهما .

ومن بناته زينب وأمها خديجة رضي الله عنهما ، تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، وهي أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن بناته صلى الله عليه وسلم رقية وأمها خديجة أيضا رضي الله عنهما ، تزوجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ونزل قوله تعالى : " تبت يدا أبي لهب وتب " (١)، أمره أبو لهب بمفارقتها ، ففارقها ، وتزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهاجرت إلى أرض الحبشة الهجرتين ، وهي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء وولدت لعثمان ولدا ، مات في سن السادسة ، ولم تلد له بعد ذلك ، وهاجرت إلى المدينة ، ومرضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى بدر ، فخلف عثمان عليها ، فتوفيت ورسول الله

---

(١) سورة المسد ١ .

صلى الله عليه وسلم ببدر على رأس سبعة عشر شهرا من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن بناته أم كلثوم وأمها خديجة رضي الله عنهما ، تزوجها عتيبة بن أبي لهب قبل النبوة ، وأمره أبوه أن يفارقها كأخيه عتبة ، ولم يكن قد دخل بها ، وأسلمت مع أمها ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء ، وهاجرت إلى المدينة ، تزوجها عثمان بعد موت رقية رضي الله عنهما ، وبذلك سمي عثمان بذي النورين ، وتوفيت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع من الهجرة [١] .

وقوله تعالى : " من جلابيبهن " الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار ، وقيل : الرداء ، وقيل : القناع ، والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن .

وقد اختلف الناس في صورة إرخائه ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعبيدة السلماني : ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها، وقال ابن عباس وقتادة : ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف ، وإن ظهرت عيناها ، لكن يستر الصدر ومعظم الوجه ، وقال الحسن : تغطي نصف وجهها .

فقد أمر الله تعالى جميع النساء بالتستر ، وإن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف عورتها ، إلا اذا كانت مع زوجها ، فلها أن تلبس ما شاءت ؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء .

وقد اختلف العلماء في حد عورة المرأة مع الرجال الأجانب ، فمنهم من قال: إن عورتها جميع بدنها احتجاجا بهذه الآية الكريمة ، ومنهم من قال : إن عورتها جميع البدن عدا الوجه والكفين ، واحتجوا بحديث أسماء بنت أبي بكر ، حين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/٢٤١ وما بعدها .

خرجت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض النبي صلى الله عليه وسلم عنها بوجهه وقال : يا أسماء : إن المرأة اذا بلغت المحيض ، فلا ينبغي أن يظهر منها أو يرى منها إلا هذا وذاك ، وأشار صلى الله عليه وسلم إلى الوجه والكفين [١] .

وقوله تعالى : " ذلك أدنى أن يعرفن " أي الحرائر ، حتى لا يختلطن بالإماء ، فإذا عرفن لم يقابلن بأدنى معارضة ؛ مراقبة لرتبة الحرية ؛ فتنقطع الأطماع عنهن ، " وكان الله غفورا رحيما " أي في كشفهن ما كن يكشفن قبل نزول آية الحجاب ، وهذا من باب التأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع .

قوله تعالى : " لئن لم ينته المنافقون .. " الآية ، قال المفسرون : إن هذه الأوصاف الثلاثة لشئ واحد ، يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء كلها .

قيل : كان منهم قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين ، قال عكرمة وغيره : " والذين في قلوبهم مرض " يعني الذين في قلوبهم الزنى ، وقال طاوس : نزلت هذه الآية في أمر النساء ، وقال سلمة بن كهيل : نزلت في أصحاب الفواحش ، والمعنى متقارب .

والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوهم ، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قد قُتلوا أو هُزموا ، وإن العدو قد أتاكم ، وقيل : هم أصحاب الصفة قوم عزاب ؛ فهم الذين يتعرضون للنساء ، وقيل : هم قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حبًا للفتنة ، وقد كان من أصحاب الإفك قوم مسلمون خاضوا حبًا للفتنة ، ولكنهم تابوا ؛ فتاب الله عليهم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإرجاف التماس الفتنة والإرجاف إشاعة الكذب والباطل للاغتنام به ، وقيل : تحريك القلوب كما ترجف الأرض أي تتحرك وتتزلزل [٢] .

---

(١) سنن البيهقي الكبرى – كتاب الحيض – باب عورة المرأة الحرة ٢/٢٢٥ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ١٤/٢٤٥ وما بعدها .

وقوله تعالى : " لنغرينك بهم " أي لنسلطنك عليهم ، فتستأصلهم بالقتل ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهم ثم إنه سبحانه وتعالى قال : " ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره " [1] ، وإنه أمره بلعنهم ، وهذا هو الإغراء .

وقال محمد بن يزيد : قد أغراهم به في الآية مع اتصال الكلام بها وهو قوله تعالى : " أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا " فهذا فيه معنى الأمر بقتلهم وأخذهم ، أي هذا حكمهم اذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف .

وقيل : إنهم قد انتهوا عن الإرجاف ؛ فلم يغر بهم .

وقوله تعالى : " ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا " أي في المدينة ، فإنهم لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا ، وقوله تعالى : " ملعونين " أي مطرودين ، فهم " أينما ثقفوا " وجدوا وأدركوا " أخذوا وقتلوا " دعاء عليهم بأن يؤخذوا ويقتلوا " تقتيلا " ، وقيل : إن هذا هو الحكم فيهم ، وليس بدعاء عليهم .

وقيل : معنى الآية أنهم إن أصروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون .

قوله تعالى : " سنة الله في الذين خلوا من قبل " أي سنّ الله تعالى ذلك في الأمم السابقة ، وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم ، وكذا حكم المرجفين .

وقوله تعالى : " ولن تجد لسنة الله تبديلا " أي تحويلا وتغييرا ، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف .

قوله تعالى : " يسألك الناس عن الساعة " أي عن وقت قيامها وحصولها ، وقيل : السائلون عن الساعة هم أولئك المنافقون والمرجفون ، فإنهم لما توعدوا بالعذاب ؛ سألوا عن الساعة من باب الاستبعاد والتكذيب .

---

(١) التوبة ٨٤ .

وقوله تعالى : " قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا " أي وما يعلمك يا محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الساعة ، فإنها كلمح البصر أو هي أقرب .

وقيام الساعة علمه عند الله تبارك وتعالى فلا يجليها لوقتها إلا هو سبحانه ، فأمر قيام الساعة من الغيب الذي لم يطلعه الله سبحانه غلى نبي مرسل ولا ملك مقرب ، وإن كان قد بين النبي صلى الله عليه وسلم أشراطها ، ومنها الكبرى كطلوع الشمس من المغرب ، وظهور الدابة ، ونزول عيسى عليه السلام ، وظهور نار تحشر الناس إلى أرض المحشر ، وانتشار دخان في الأرض ، وخروج المسيح الدجال ، وظهور يأجوج ومأجوج وغير ذلك مما هو ثابت بنصوص الكتاب والسنة.

أما الأشراط الصغرى فكثيرة منها ما ثبت بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : كأن تلد الأمة ربتها وترى الحفاة العراة يتطاولون في البنيان ، وكثرة الحوادث في الطرقات ، وظهور الفاحشة والأمراض والأوبئة والأوجاع في الناس بسبب كثرة الفساد في الأرض ، يقول تعالى : " ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون " [١] وغير ذلك .

وليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله سبحانه ، ففي قوله تعالى : " وما يدريك " أي ما يعلمك دليل على أن ذلك ليس شرطا في أي نبي بعث لقومه .

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة هكذا " [٢] وأشار بالسبابة والوسطى ، وقد أخفى الله تعالى وقت قيام الساعة ؛ ليكون العبد مستعدا لها في كل وقت ، كما أخفى وقت خروج الروح من الإنسان .

---

(١) الروم ٤١ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب قرب الساعة ٢٢٦٨/٤ .

وقوله تعالى : " إن الله لعن الكافرين " أي طردهم وأبعدهم من رحمته " وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا " فقد أنث السعير ؛ لأنها بمعنى النار الشديدة في تسعرها.

والخلود هنا خلود بلا انقطاع ، فإنهم فيها : " لا يجدون وليا ولا نصيرا " أي إنهم في هذه النار المستعرة لا يجدون من يواليهم ويحفظهم من عذاب يوم القيامة ، فلا أحد ينصرهم ويخلصهم مما هم فيه والعياذ بالله في ذلك اليوم .

ففي ذلك اليوم تلفح وجوههم النار ، يقول تعالى : " يوم تقلب وجوههم في النار " ، وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار ، فتسود تارة وتخضر تارة ، وإذا أبدلت جلودهم بجلود أخر ؛ فحينئذ يتمنون لو أنهم ما كفروا ، فيظهر الندم حيث لا ينفع ندمهم وعندها " يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا " أي لم نكفر ؛ لكي ننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون .

وهذه الألف تقع في الفواصل ، فيوقف عليها ولا يوصل بها وكذا كلمة "السبيلا " ، والمعنى أنهم تمنوا أنهم أطاعوا الله والرسول صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا بما جاء به ، لينجوا مما هم فيه من العذاب ؛ لأن من أطاع الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم فقد هدى إلى طريق مستقيم وفاز بالنجاة يوم القيامة من عذاب النار ، ومن أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك فقد أطاع الله سبحانه ؛ لأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله سبحانه وتعالى ، يقول تعالى : " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا " [١] ، ويقول سبحانه : " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .. " [٢] .

وقوله تعالى : " وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا " أي الرؤساء والقادة الذين كانوا يتمثلون أمرهم في الدنيا ، ويقتدون بهم ، وفي هذا زجر عن التقليد

---

(١) المائدة ٩٢ .

(٢) الحشر ٧ .

الأعمى ، وكم في كتاب الله تعالى من هذا النوع من التحذير والتنفير من تقليد الأبناء للآباء الكافرين ، وهذا التنبيه على عدم تقليد الآباء في عبادة غير الله تعالى إنما يكون لمن يفهم معنى كلام الله تعالى ، ويقتدي به ، وينصف من نفسه ، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب [١] .

وقوله تعالى : " فأضلونا السبيلا " أي عن السبيل وهو التوحيد ، وقوله تعالى: " ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبير " قال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وهذا القول بعيد ؛ لأن المقام لا يقتضيه ، بدليل أنهم يقولون هذا عند معاينة العذاب في الآخرة ، فكيف يدعون عليهم بالعذاب في الدنيا وقد انتهت بقيام الساعة . والله تعالى أعلى وأعلم .

وقيل : عذاب الكفر ، وعذاب الإضلال ، أي عذبهم بمثلَيْ ما تعذبنا به ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا .

وقوله تعالى : " والعنهم لعنا كبيرا " أي كثيرا ؛ إذ إن هناك قراءة لكلمة "كبيرة " على أنها كثيرة ؛ لقوله تعالى :" أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " [٢] ؛ ولأن ما كبر ؛ كان كثيرا عظيم المقدار .

الأمر بتقوى الله وحفظ الأمانة

قوله تعالى :

: " يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٤٩/١٤ وما بعدها .

(٢) البقرة ١٥٩ .

كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما " .

الإعراب :

لا : أداة نهي تجزم الفعل المضارع .

تكونوا : فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، وعلامة جزمه حذف النون ؛ لأنه من الأفعال الخمسة ، وواو الجماعة ضمير مبني على السكون في محل رفع اسم تكون وشبه الجملة (كالذين آذوا موسى) في محل نصب خبر تكون .

وجيها : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

قولا : مفعول مطلق مبين للنوع منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

سديدا : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

يصلح : فعل مضارع مجزوم ، وعلامة جزمه السكون ؛ لأنه واقع في جواب الطلب .

ويغفر : الواو حرف عطف ، يغفر : فعل مضارع مجزوم ، وعلامة جزمة السكون والفاعل لكل من (يصلح – يغفر) ضمير مستتر تقديره (هو) .

يطع : فعل الشرط ، مضارع مجزوم ، وعلامة جزمه السكون ، وحذفت الياء الساكنة ؛ منعا لالتقاء الساكنين .

فقد فاز : الفاء واقعة في جواب الشرط ، وقد : حرف تحقيق مبني على السكون لا محل له من الإعراب ، فاز : فعل ماض مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو).

فوزا : مفعول مطلق (مبين للنوع) منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

عظيما : نعت منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

إنا : إن حرف توكيد ونصب ، والنا : ضمير مبني على السكون في محل نصب اسم إن .

عرضنا : فعل ماض مبني على السكون ؛ لاتصاله بنا الفاعلين ، ونا الفاعلين ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل .

الأمانة : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد . والجملة الفعلية (عرضنا الأمانة) في محل رفع خبر إن .

فأبين : فعل ماض مبني على السكون ، لاتصاله بنون النسوة ، ونون النسوة ضمير مبني في محل رفع فاعل .

أن : أداة نصب للفعل المضارع .

يحملنها : فعل مضارع مبني على السكون ، لاتصاله بنون النسوة ، ونون النسوة فاعل ، والها ضمير مبني على السكون في محل نصب مفعول به ، و(يحملنها) في محل نصب بأن .

الإنسان : فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة ؛ لأنه مفرد .

ليعذب : اللام لام التعليل ، ويعذب فعل مضارع منصوب بأن المضمرة ، وعلامة نصبه الفتحة .

الله : لفظ الجلالة فاعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة .

المنافقين : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الياء ؛ لأنه جمع مذكر سالم .

والمنافقات : معطوف منصوب ، وعلامة نصبه الكسرة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم .

غفورا : خبر كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

رحيما : نعت لكلمة (غفورا) منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد أو خبر ثان للفعل كان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة ؛ لأنه مفرد .

قال البخاري عند تفسير هذه الآية : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن موسى كان رجلا حييا ، وذلك قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها " ، وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا لا يُرى من جلده شئ استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب جلده ، إما برص ، وإما أدارة ، وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام ، فخلا يوما وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى إذا انتهى إلى الملأ من بني إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله عز وجل ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا ، قال صلى الله عليه وسلم : فذلك قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها " [١] .

وقوله تعالى : " فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها " قال ابن كثير رحمه الله روى عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين أن موسى عليه السلام صعد وهارون الجبل ، فمات هارون عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك وأشد حياء ، فآذوه من ذلك ، فأمر الله تعالى الملائكة ، فحملته فمروا على مجالس بني إسرائيل ، فتكلمت بموته فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم " [٢] .

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الأنبياء – باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام ١٢٤٦/٣ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير ٥٢١/٣ و ما بعدها .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال ، فقسمه ، قال فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال : فثبت حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئا ، وإني مررت بفلان وفلان ، وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليه ثم قال : " دعنا منك لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر "[١]

وقوله تعالى : " وكان عند الله وجيها " ذا جاه ومنزلة مستجاب الدعوة ، وقرأ ابن مسعود والأعمش : " وكان عبدا لله وجيها .. " [٢] .

ومن وجاهته أيضا أنه لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله عز وجل ، وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله تعالى أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله عز وجل سؤاله فقال سبحانه : " ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا " [٣].

قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما " .

يأمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين الذين رضوا به ربا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا وبالقرآن منهاجا ودستورا أن يتقوه حق التقوى ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، ولقد عرفنا معنى التقوى ، وهي أن يجعل العبد بينه

---

(١) المستدرك على الصحيحين – كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين – ذكر وفاة هارون عليه السلام ٦٣٢/٢ .

(٢) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ٣١٥/٣ .

(٣) مريم ٥٣ .

وبين عذاب الله تعالى وقاية ، بمعنى أن يأتمر بأمر الله تعالى ، وأن يجتنب ما نهى الله عنه ؛ حتى لا يعرض نفسه للعقوبة في الدنيا والآخرة ، وحتى ينال ثواب الله تعالى في الدارين .

وقوله تعالى : " قولا سديدا " أي مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ؛ أثابهم عليه بأن يصلح لهم الأعمال ، بأن يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية وما قد يقع منهم في المستقبل بأن يلهمهم التوبة منها ، ثم قال سبحانه : " ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما " وذلك بأن يجار من النار وعذابها الأليم ، ويصير إلى الجنة ونعيمها المقيم .

وعن محمد بن كعب عن ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين موقوفا ، قال : من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله سبحانه .

وقال عكرمة رضي الله عنه : القول السديد لا إله إلا الله ، وقال غيره : القول السديد الصدق ، وقال مجاهد : هو السداد ، وقال غيره : هو الصواب ، وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه ، وقيل : هو ما أريد به وجه الله تعالى ، وقيل : هو الإصلاح بين الناس .

قال الشوكاني رحمه الله : والظاهر أنه أمرهم بأن يقولوا قولا سديدا في جميع ما يأتونه ويذرونه ، فلا يخص ذلك نوعا دون نوع ، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي العموم ، فالمقام يفيد هذا المعنى ؛ لأنه سبحانه أرشد عباده إلى أن يقولوا قولا يخالف قول أهل الأذى ، ثم ذكر ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى والقول السديد من الأجر ، فقال سبحانه : " يصلح لكم أعمالكم " أي يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهديهم إليه ، ويوفقهم فيه ، كما يجعل ذنوبهم مغفورة لهم ، ويظفرون بالخير ظفرا عظيما ، كما ينالون خيري الدنيا والآخرة (١) .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/٣٠٨ وما بعدها .

قوله تعالى : " إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فـأبين أن يحملنها وأشفقن منها " لما فرغ الله تبارك وتعالى من بيان ما لأهـل الطاعـة مـن الخير والمغفرة والفوز بخيري الدنيا والآخرة ، بيَّن عظم شأن التكاليف الشـرعية ، وصعوبة أمرها عند الأداء لها كأمانة من الأمانات .

والأمانة في الآية الكريمة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول جمهور العلماء .

روى الترمذي رحمه الله في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى لآدم : يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض ، فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها ؟ فقال : وما فيها يـا رب ؟ قال : إن حملتها أجرت ، وإن ضيعتها عذبت ، فاحتملها بما فيها ، فلم يلبـث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها " [١] .

فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله تعالى عليها العباد ، وقد اختلف العلماء في تفاصيل بعضها على أقوال أبينها فيما يلي :

قال ابن مسعود : الأمانة هي في الأموال كالودائع وغيرها .

وعنه رضي الله عنه أيضا : أنها الفرائض كلها ، وأشدها أمانة المال .

وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها .

وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وأن الله سبحانه لم يأمن ابن آدم على شـئ من دينه غيرها .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : أول ما خلق الله تعالى من الإنسـان فرجـه ، وقال : هذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها إلا بحق ، فإن حفظتها حفظتك ، فـالفرج

---

(١) تعظيم قدر الصلاة : أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي (٢٩٤هـ) - مكتبة الدار - المدينة المنورة - ١٤٠٦هـ - ط١ - تفسير الأمانة ٤٧٣/١ .

أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانــة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له " [١] .

وروى معمر عن الحسن أن الأمانــة عرضــت علــى الســموات والأرض والجبال ، قالت : وما فيها ؟ قيل لها : إن أحسنت جوزيت ، وإن أسأت عوقبــت ، فقالت : لا ، وقال مجاهد : فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه ، قال : وما هي ؟ قال : إن أحسنت أجزيتك ، وإن أسأت عذبتك ، قال : تحملتها يا رب ، قال مجاهد : فما كان بين أن يحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ": إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال " : إن الأمانة الفرائض ، عرضــها الله تعــالى علــى السموات والأرض والجبال ، وإن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك ، وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا بــه ، ثــم عرضها على آدم ، فقبلها بما فيها .

قال النحاس : وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير .

وقيل : هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض والجبــال والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها إلا الإنسان ، فإنه كتمها وجحدها .

والمعنى إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات وأهل الأرض مــن الملائكــة والإنس والجن " فأبين أن يحملنها " أي يحملن وزرها ، كمــا قــال عــز وجــل : "وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم " [٢] ، ثم قال سبحانه : " وحملها الإنسان " قــال الحسن : الكافرون والمنافقون . " إنه كان ظلوما " أي كثير الظلــم لنفســه ؛ لأنــه يعرضها لعذاب الله تعالى بالمخالفة والمعصية " جهولا " أي كثير الجهل بعاقبة أمره

---

(١) راجع تفسير القرطبي ٢٥٣/١٤ وما بعدها .

(٢) العنكبوت ١٣ .

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وأعطى الزكاة من مال طيب النفس بها – وكان يقول – وايم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، وأدى الأمانة " قالوا : يا أبا الدرداء وما الأمانة؟ قال رضي الله عنه : الغسل من الجنابة ، فإن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شئ من دينه غيره " (١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها أو قال يكفر كل شئ إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة ، فيقال له : إد أمانتك ؛ فيقول : أنى يا رب ، وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك ، فيقول أني يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول : اذهبوا به إلى أمه الهاوية ، فيذهب به إلى الهاوية ، فيهوى فيها حتى ينتهي إلى قعرها ، فيجدها هنالك كهيئتها ، فيحملها فيضعها على عاتقه ، فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج ؛ زلت قدمه ، فهوى في أثرها أبد الآبدين " قال : والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الوضوء ، والأمانة في الحديث ، وأشد ذلك الودائع . فلقيت البراء ، فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال : صدق " (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ الأمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة " (٣) .

---

(١) راجع تفسير الطبري ٢٢/٥ وما بعدها .

(٢) الترهيب والترغيب : أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (٦٥٦هـ) ـ دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤١٧هـ – الترهيب من بخس الكيل والوزن ٣٥٨/٢ .

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣٤٩/٤ حديث رقم ٧٨٧٦ .

وقوله تعالى : " ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات " أي إنما حمّل الله تعالى بني آدم الأمانة ، وهي التكاليف الشرعية ، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهل الإيمان ، ويبطنون الكفر متابعة لأهله .

والمنافق أشد خطرا على الإسلام وأهله من الكافر ؛ لأن المنافق يعيش مع المسلمين مستظهرا إيمانه ، ويكيد لهم كيدا مع أعداء الله تعالى ، فلا يحتاط منه ولا يحذر من عمله .

بينما الكافر ظاهر في كفره ، وبيِّن في عداوته ؛ لذا فإنه يُحذر ويحتاط لأمره ، ولذا عوقب المنافق بأشد عقوبة ، يقول تعالى : " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار .. " (١) .

وقد نزلت سورة كاملة باسم المنافقين وهي سورة " المنافقون " ، وكذا ذكر النفاق وأهله في مواضع متعددة من كتاب الله تعالى في البقرة وبراءة ، وغيرهما ، ليبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحوالهم ومواقفهم المكشوفة ، فعلنة الله عليهم في الدنيا والآخرة ، وحفظنا الله تعالى من النفاق وأهله .

وكذا فإن عذاب الله تعالى واقع بالمشركين والمشركات ، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم الكفر بالله تعالى ، ومخالفة رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجميعن (٢) .

بينما يرحم الله تعالى المؤمنين والمؤمنات ، وإن صدر منهم معصية ، فالله تعالى يرحمهم ؛ لأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ، فعملوا بما جاءهم من الحق ، وكانوا مشفقين من عذاب الله ، وكانوا إذا فعلوا ما أوجب غضب الله تعالى من خطيئة أو ذنب أو معصية ؛ استغفروا وتابوا إلى الله أملا في

---

(١) النساء ١٤٥ .

(٢) راجع فتح القدير ٣٠٩/٤ وما بعدها ، وابن كثير في تفسيره ٥٢٣/٣ وما بعدها ، والقرطبي في تفسيره ٢٥٨/١٤ وما بعدها .

الغفران وتكفير السيئات ؛ لأنهم يعلمون أن لهم ربا يغفر الذنوب ، ولذلك يقول تعالى عقب هذا : " وكان الله غفورا رحيما " أي كثير المغفرة والرحمة للمؤمنين من عباده ، إذا قصروا في شئ مما يجب عليهم ، أو تجاوزوا الحدود ، وعندئذ يستغفرونه ، فيتوب عليهم ؛ لأن الله تعالى يغفر كل الذنوب إلا ذنب الشرك به ، يقول تعالى : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " [١] ، ويقول تعالى : " والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين " [٢] ، ويقول تعالى : " إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما " [٣] .

ويقول سبحانه : " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم " [٤] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) النساء ١١٦ .

(٢) آل عمران ١٣٥ : ١٣٦ .

(٣) النساء ٣١ .

(٤) الزمر ٥٣ .

المصادر والمراجع

١- الأحاديث المختارة : أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي (٦٤٣هـ) – مكتبة النهضة الحديثة – مكة المكرمة ١٤١٠هـ – ط١ .

٢- أحكام القرآن للشافعي : أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٠هـ .

٣- تحفة الأحوزي : أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (١٣٥٣هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – د/ت .

٤- الترهيب والترغيب للمنذري : أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (٦٥٦هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٧هـ – ط١ .

٥- تفسير ابن كثير – تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي – دار الفكر – بيروت – ١٤٠١هـ .

٦- تفسير الجلالين : محمد بن أحمد وعبد الرحمن بن أبي بكر المحلى والسيوطي – دار الحديث – القاهرة – ط١ – د/ت .

٧- تفسير الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري (٣١٠هـ) – دار الفكر – بيروت – ١٤٠٥هـ .

٨- تفسير القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ) – دار الشعب – القاهرة – ١٣٧٢هـ – ط٢ .

٩- تفسير النسفي – المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل : أبو البركات عبد الله النسفي (٧٠١هـ) – دار الفكر – بيروت – د/ت .

١٠- تعظيم قدر الصلاة : أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي (٢٩٤هـ) – مكتبة الدار – المدينة المنورة – ١٤٠٦هـ – ط١ .

١١- التمهيد : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (٤٦٣هـ) - وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية - المغرب - ١٣٨٧هـ .

١٢- زاد المسير : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ) - المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٤هـ - ط٣ .

١٣- سنن أبي داود : أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأسدي (٢٧٥هـ) - دار الفكر - بيروت - د/ت .

١٤- سنن البيهقي الكبرى : أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (٤٥٨هـ) - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

١٥- سنن الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي (٢٧٩هـ) - دار إحياء التراث العربي - بيروت - د/ت .

١٦- سنن الدارقطني : أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (٣٨٥هـ) - دار المعرفة - بيروت - ١٣٨٦هـ .

١٧- سنن الدارمي : أبو محمد الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن (٢٥٥هـ) - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٧هـ - ط١ .

١٨- السنن الكبرى : أبو عبد الرحمن النسائي أحمد بن شعيب (٣٠٣هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ /١٩٩١م - ط١ .

١٩- السيرة النبوية : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (٢١٣هـ) - دار الجيل - بيروت - ١٤١١هـ - ط١ .

٢٠- شرح الزرقاني : محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (١١٢٢هـ) - دار الكتب العلمية بيروت - ط١ - ١٤١١هـ .

٢١- صحيح ابن حبان : أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤هـ) - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م - ط٢ .

٢٢- صحيح ابن خزيمة : أبو بكر السلمي النيسابوري محمد بن إسحاق بن خزيمة (٣١١هـ) – المكتب الإسلامي – بيروت – ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

٢٣- صحيح البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي (٢٥٦هـ) – دار ابن كثير – اليمامة – بيروت – ١٤٠٧هـ – ط٣ .

٢٤- صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ) – دار إحياء التراث العربي – بيروت – د/ت .

٢٥- الطبقات الكبرى : أبو عبد الله البصري الزهري محمد بن سعد بن منيع (٢٣٠هـ) – دار صادر – بيروت – د/ت .

٢٦- فتح الباري : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (٨٥٢هـ) دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩هـ .

٢٧- فتح القدير : محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠هـ) – دار الفكر – بيروت – د/ت .

٢٨- في ظلال القرآن : للشيخ سيد قطب – دار حوسبة النص العربي – مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي – د/ت .

٢٩- مجمع الزوائد : علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧هـ) – دار الريان للتراث – دار الكتاب العربي – القاهرة – بيروت – ١٤٠٧هـ .

٣٠- المحلى : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (٤٥٦هـ) – دار الآفاق الجديدة – بيروت – د/ت .

٣١- مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – مكتبة لبنان – ١٩٩٩م .

٣٢- المستدرك على الصحيحين : أبو عبد الله الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله (٤٠٥هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١هـ / ١٩٩١م – ط١.

٣٣- مسند أبي عوانة ٢ : أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (٣١٦هـ) - دار المعرفة - بيروت - د/ت .

٣٤- مسند أبي يعلى : أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ) - دار المأمون للتراث - دمشق - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - ط١ .

٣٥- مسند الإمام أحمد : أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) - مؤسسة قرطبة - مصر - د/ت .

٣٦- مسند الشافعي : أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - د/ت .

٣٧- مصنف ابن أبي شيبة : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (٢٣٥هـ) - مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩هـ - ط١ .

٣٨- المعجم الأوسط : أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) - دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥هـ .

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٤ / ٧٥٠٥